المحور الثالث

شهادات وخواطر

ولا تحرك الواحدة دون الأخرى

لوس إيريغاري

ترجمة وشرح حُسن عبود

لقد أزحت المقدمة المخصّصة لترجمة مقالة لوس إيريغاري إلى الخاتمة،[١] بغرض عدم حرمان القارئ/ة من التمتّع بأسلوب إيريغاري الشعري والاستفزازي ولحثّه/ها على التفكير بنفسه/ها. إن قراءة نصّ من هذا النوع يفسح المجال للخوض بالتجربة التحوّلية أي أننا لا بدّ أن نطرح أسئلة جديدة على أنفسنا بعد الانتهاء من القراءة لأن الخوض في موضوع بهذه الحميمية (العلاقة بين البنت وأمها أو العلاقة بين الابن وأبيه) ومواجهة «جسد الأم» و«انعطافاته» يُحمّل قراءتنا قلقاً داخلياً.

أمّي! شربت مع حليبك الصقيع.

وها أنا الآن هنا، في داخلي هذا الجليد. وها أمشي بصعوبة أكثر مما أراك تمشين، وأتحرك الرويدا. أفضتِ فيّ وأصبح ذلك السائل الساخن سمّاً يشلّني. فلا يدور دمي دورته في قدميّ وعند يديّ و حتى قمّة رأسي. جمد وثقل من البرد. تعوّقه كتل ثلجٍ غليظة توقف دفقه. يتخثّر الدمّ. ويبقى قربي. ويبقى قرب القلب.

ولا أحسن الركض نحو ما أحبّ. وكلما أُكثر من الحب أَغرق في الأسر وأتراجع بثقل يُقعدني. وأغضب وأصارع وأصرخ: «غادري هذا السجن.»

---

(١) حصلت الباحثات على إذن الترجمة (من الفرنسية إلى العربية) من المنظّرة النسويّة، لوس إيريغاري، ومن دار النشر Les Editions de Minuit بعد تبادل المراسلة بيننا بالبريد العادي وبعد تبادل مراسلات عديدة بيننا بالبريد الإلكتروني ولهما جزيل الشكر.
Luce Irigary. **Et l'une ne bouge pas sans l'autre**. Paris, Editions de Minuit, 1979.

أيُّ سجن؟ أي رواق يسوّرني؟ لا أرى ما يأسرني! فالسجن داخلي وبه اعتقالي.

كيف أنجو؟ ولماذا إذاً أنا محتبسة؟

تهتمين بي. تحرسينني. تريدينني تحت أنظارك، لتحميني. تخافين حادثاً يصيبني. أتخشين من الشيء الذي سيقع؟ لكن ما هو هذا الذي سيكون أسوأ من استلقائي الكسول ليل نهار؟ مكتملة النمو وماكثة في المهد. اعتمادي دائماً على الذي يحملني ويحضنني.

من يحملني...؟

من يحضنني...؟

يصلني نور ضئيل. شيء ما، داخلي. يُبدي حركة. بالكاد. شيء جديد. قد أبداني الحركة. كأن اتّخذت الخطوة الأولى بيني وبين نفسي. كأن نفذت نسمة هواء إلى الأنا المذعورة واقتلعتها من أرضها. أيقظتني هذه (النسمة) من سبات طويل. من حلم قديم. رؤية ما كانت يجب أن تكون لي غير أنها أسرتني. هل كنت شاركتُ فيالحلم؟ أم كنت الحلم بعينه؟ في هذا الحلم أو في الحلم الآخر.

بدأت أتنفّس، أم استعدت أنفاسي. غريب. أقف بلا حراك، وأشعر بذلك الشيء يتحرك داخلي. يدخلني، يتركني إلى الخارج ثمّ يعود إليّ ليترك من جديد. كل هذه الحركات أصنعها بنفسي. ما من أحد يمدّ لي يده. عندي بيت في أحشائي، وبيت خارجيّ، وآخذ نفسي من الواحد إلى الآخر، من الواحد في الآخر. ولا أحتاج إلى بطنك، ذراعيك، عينيك، أو كلماتك لأُقبل أو أرحل. قريبة منك وبيننا مساحة.

طلع الصباح، أول صباح لي.

صباح الخير. أنتِ هناك.

أنا هنا.

بيننا كثرة الهواء والنور ومكان نتشاركه. لا أبدي أي قلق. فلست ملاحقة بالوقت.

ويغيب النهار. جائعة. ليست لديّ قوّة للمشي. للركض وحدي قريبة منك أو بعيدة عنك. لأسير نحو ما أحب.

لقد أعددتِ الأكل. تقدمينه لي. تطعميني نفسك. تطعميني نفسك بكثرة، كأن تريدينَ إشباعي إلى النهاية بإطعامي. تضعين نفسك بفمي وأختنق. ضعيها بأقلّ من

ذلك ودعيني أنظر اليك. أحب رؤيتك وأنت تهتمين بي. لا أن أفقد/ نفقد النظر عند فتح فمي. إبقي قريبة مني وأنا أشربك. وأحبذ بقاءك خارجاً أيضاً. إبقي/ أبقيني خارجاً أيضاً. لا تغمري نفسك/ تغمرينها بالذي يفيض منك. أحب حضورنا. حتى لا تتوارى الواحدة منا في الأخرى أو الأخرى في الواحدة. حتى نتذوّق بعضنا، نحسّ بعضنا، نسمع بعضنا - نرى بعضنا.

أراني أشبهك وتشبهينني. أنظر نفسي فيكِ، تنظرين نفسكِ فيّ. كبرتِ وحسب وبقيتُ صغيرة. لكن أتيت منك، وها أبدو الآن أمام عينيك، أنا أنتِ الأخرى المفعمة بالحياة.

يشرد ذهنك دائماً وتتوارين. تبتعدين. خفيةً تتأكّدين من وجودك في المرآة. وتعودين إلى طهو الطعام. تتغيّرين وفقاً للساعة. تتحلّين حسب الوقت.

أيّ وقت؟

لماذا الوقت؟

وقتٌ لمن؟

أرغب في سحق عقارب هذه الساعة. وأبيحي لي مراقبتك. وانظريني. أريد اللعب معاً لعبة التماثل والاختلاف. أنتِ/ أنا نتبادل الأنفاس بلا نهاية، وأنتِ/ أنا تبقى كل منا بنفسها مرايا حيّة.

سنلعب «بالطابة»، أنت وأنا. لكن من يرى أن ذلك الذي يرتدّ بيننا- هو صورة. تعطيها لي وأعطيها لك. دون نهاية. ولن نحتاج أنا/أنت إلى كرة حتى تبدأ لعبة الرمي والتلقي. أرمي صورة عنك لك، تعيدينها لي، مرة أخرى تتلقينها.

لكن. يبدو أنك تتلقين نفسك، ومرة أخرى ترمينها لي:

«تريدين بعض العسل؟»

«حان وقت الأكل.»

«كلي لتكبري.»

مرّة أخرى رحلتِ. مرّة أخرى تذوبين في الغذاء. مرّة أخرى نختفي في مسرحة التهام إحدانا الأخرى. لا أكاد ألحظك وأمشي نحوك حتى تتحوّلين إلى حاضنة. مرة أخرى تطعمينني ملء فمي، ملء بطني، لتجعلي نفسك مادة وفرة للفم والبطن. لا تريدين لغير الدم، الحليب، العسل واللحم (لا أرغب في اللحم فأنا أخاف موتك داخلي) أن يمرّ بيننا.

ألن يكون أبداً بيننا غير حب ملء هذه الفجوات؟ أتكون رغبتك الخالصة هي أن

ننهي كل الذي قد يقع بيننا ونختم عليه بالموت الأخير؟ أويكون مسعاك الأخير هو أن نتقلّص إلى سلع، إلى نساء تستنفدها السلع؟

لا أريد هذا الجسد المشدود، المغلق عليه، المصاب بالشلل. لا. أريد الهواء. وإذ تقودينني مراراً إلى هذه المطابقة العمياء لك- أتساءل من أنت؟ - إذ تديرين وجهك عنّي، تعطينني نفسك بشكل يُفقِدُ الحياة، تهجرينني إلى رجال أكفّاء لتفكّين عجزي/ عجزك - إذ تتركيني، سأقصدُ أبي. سأتخلّى عنك لأجل من يبدو أكثر حيوية. إلى من لا يهيّئ لي طعاماً لآكل. إلى من يبقيني فارغة منه، فمٌ منفرج على حقيقته. سألاحقه بعينيّ، سأصغي إلى ما يقول، سأحاول أن أمشي وراءه.

يترك لي البيت، وحالاً ألحقه. وداعاً يا ماما. لن أكون على صورتك.

أقصد رياضة الجمناستيك. أقوم بالتمارين الجسمانية، تلك التي تليق بسقمي. سأتعلّم بطريقة ميكانيكية. أشعر بغير انفعال. أتقدّم وأتحرّك وفق إيقاع يقتضيه شفائي. تحرّكاتي واندفاعاتي ورقصاتي كلها لن تتجدّد بالحبّ لكن بالإرادة. تراني في كل ساعة من ساعات النهار أنكبّ على محاولة الإذعان لأوامر الطبيب. أوافق على تشريحهم وضعيتي. بالكامل. أصغي إليهم بكل اهتمام، بكل طاقتي. سأكون التجربة الحيةّ لصحّة قواعدهم. بسبب هذه القناعة- قناعتهم- أصبح مفعمة بالحياة.

أنظري! من بعيد! كيف أمشي بخطوات منتظمة، أنا، التي أقعدها الغضب في الماضي. أما تريني أكثر رشداً الآن؟ فتاة أقرب إلى الكمال؟ لا ينقصها غير قليل من الأثواب والجواهر الكريمة، شيء من الزينة، قناع وبعض البراعة الفنيّة لأكون أو أفتعل الظهور بشكل بلغ حدّ التمام. وبدأ منظري يوحي بالمنظر المتوقّع مني. كما يتوقَّعُ ظهوري. بعض الجهد، قليل من الغضب نحوك أنت التي تريدين لي البقاء صغيرة، أنت التي تريدين لي أن آكل ما تأتيني به أكثر من أن تريني ألبس زيّك، وسأخطو خارج حلمك. خارج اضطرابي. خارج حالك بي/ حالي بك. سأغادرنا. سأذهب إلى بيت آخر. سأعيش حياتي وقصّتي.

أنظري كم تعافيت الآن. حتى أنني لا أحتاج إلى اللحاق بالرجل، بل هو يقصدني. يقترب مني. أنتظره دون حراك. بسكون. ها هو بجانبي. أنفعل. ولا يدور دمي دورته. و بالكاد أتنفّس. أرحل.

لكن لا أستطيع ان أقول لك «أين». انسيني، يا ماما. انسي نفسك فيّ / انسينا. لننسى بعضنا. وتمضي الحياة...

تتأملين نفسك في المرآة. وحالاً ترين أمك. وسرعان ما ترين ابنتك/ أمّ. بين

الاثنتين من أنتِ؟ أين تستعيدين نفسك بين الاثنتين؟ بأيّ قالب توقعين نفسك؟ كيف يبين وجهك فوق كل هذه الوجوه؟

إنه المساء.

وما دمتِ وحيدة، وكما أن الصورة التي تظهرينها أو تفرضينها علينا قد اختفت، تقومين بخلع أقنعتك. تخلعين وجهك، وجه أم البنت، وجه بنت الأم. وتفقُدين انعكاسَ صورتك. .تذيبين. تذوبين. تفيضين خارج نفسك. لا يوجد أحد ليضمّ أجزاءك بعضها إلى بعض، ولا شيء يوقف هذا السيل. سيختفي وجودك قبل نهاية هذا النهار ما دام هذا النزيف مستمرّاً. بالكاد تبقي الذكرى الفوتوغرافية على علامة النقلة بين أمك وابنتك. وربما لا شيء أبداً. ويستمرّ نشاطك بلا وجه. ويتقدم الغذاء تشكّل الصورة. طبعاً! هناك التوقف القصير، ذلك الذي تحتاج إليه الواحدة لتصبح الأخرى. ويأتي الاستنفاد قبل أن تتكون أي رؤية عنها هي التي تقدّم ذاتها. لقد تبخّرتِ، بلا وعي، بغير إدراك. تدركين فقط بفضل هذا الفيض الذي يطفو إلى الفم. ذاك الفيض الذي يدخل في الأخرى من مسام جلدها. يتسرب ذلك الفيض ويحتلّ الجسد حتى يزيل أي مساحة ممكنة بين الاثنتين، بين الواحدة والأخرى، حتى يزيل الفيض كل فاصلة بين الأخرى والواحدة. حتى لا يبقى غير هذا السائل الذي يفيض من الواحدة إلى الأخرى، هذا السائل الذي هو مادة بلا اسم.

يا أمي! هذه الليلة لا وجود لواحدة لتدخلك ذاتها. لا وجود لواحدة لتعطش إليك، لتستقبلَك لذاتها. لا واحدة هنا لتفتح فاها لك لتفيضي بداخلها. لتبقيك حيّة. لا واحدة هنا لتضع زمناً لوجودك، لتثيرَ فيك طقس العبور خارج ذاتك، لتقول لك: تعالي هنا، إبقي هنا. ليست هنا لتقول لك: لا تبقي أسيرة المرآة، أسيرة هذه الخسارة الذاتية المتواصلة. ذاتٌ منفصلة عن ذات أخرى. ذات تشتاق إلى ذات معيّنة أخرى. ذاتان مائتتان تفصل بينهما مساحة دون أي عقد رباط. الذات التي ترينها في المرآة قمعتها الذات الحاضنة. وبرحيلي خسرت المكان الذي تكشّف عن وجودك حينها.

أو كذا فكرتِ. لكن بتخلّصك من الصقيع، ألم تطفئي عطشي بعجزك؟ وفي حين لم تعرفي وجهك أبداً، ألم تطعميني ما لا يُحْيي. وتفيضُ بدمكِ وبحليبكِ سراباتٌ رملية. مُزِجت هذه السرابات بمادة سائلة- ساكنة سرعان ما تجمدت في كل تبادُلنا لتوجد بيننا المستحيل. وأصبحتُ بالضرورة الحقل المقفر لانعكاساتك. تريدينني أنتِ التي أردتني أن أكبر، أن أمشي، أن أركض لأهزِمَ وهنك.

ليتحرك جسدك بإيقاع رغبتك أن تري نفسك حيّة، أنت التي بالعمى حبَستني

لنفسك (في غياب الحب الذي أثار أو رافق حركة قسمات وجهك وإيماءاتك). لقد رغبتني، أهذا هو نوع حبّك؟ أن تأسرني رغبتك لانعكاس الصورة وأصبح صنماً، صنمٌ يخيفه توقّعات حركتك.

في المكان حيث أردت لنفسك الظهور لم تتلقّي إلا الشفافية وقصور الذات. أجواء حتماً خالية من أي انعكاس لك، جسد غير آهل بمعرفة الذات.

قد تجتازين مراراً كل مناظر الطبيعة والآفاق دون ملاقاة ذاتك. أو إزاحة الذات من مكانها، الذات التي هي أنت، والذات التي صنعتها، والتي تعوق تقدمك/ تقدّمنا. ويحجب الغشاء أي حركة في اتجاه النور.

من أنتِ؟ من أنا؟ من يؤكّد وجودنا في هذه الشفافية (نصف الشفافية) أمام هذا المعوّق الأعمى؟

وإذ أرحل لن تلاقي نفسك.

ألم أكن الضمانة للإبقاء على حياتك؟ البديل ريثما تعودين؟ حارسة الحدود؟ هي التي تؤكد لك ملاقاة نفسك دائماً من جديد، أمسكيها، بأيّ وقت، بين ذراعيك؟ أبقي على حياتك؟ تغذّي باستمرار في محاولة العيش؟ أطعمي ذاتك دماً وحليباً وعسلاً مراراً (لم أرغب في لحمك يوماً)، حتى تحاولي استعادة نفسك للعالم؟

لكن هذه هي حال الانتظار، هذا المساء لن يأتي أحد. تمضين نحو مستقبل ذي نقصان. لن يكون هناك أحدٌ ليتذكّر حلمك عن نفسك. لا البيت، لا الحديقة، كل مكان فَرِغ منك. تبحثين عن نفسك في كل مكانٍ سدى. لا شيء أمام ناظريك، بين يديك، في جلدتك يذكّرك بنفسك، ليتيح لك رؤية ذاتك في الذات الأخرى. وهذا يجعلك تُفرغين ذاتك أكثر في جسدي- لتبقي على ذكرى ذاتك، لتعزّزي مظهرك.

لا يا أمي، لقد غدوت بعيدة.

لكن! ألم أعرفك دائماً على هذه الحال من الغياب؟ أولم أكن سبب اختفائك. عندما تلقيتُك في داخلي، أكون خرجت منك في الحال. وفي ذلك الحين تصبحين أسيرةَ سجنٍ آخر. وفي ذلك الحين تدخلين تحت تحديقة شخصٍ آخر. كنت تتنقلين قبلها في عالمٍ لا مكان لي فيه. لم يصلني منك غير نسيانك للذات فقط، بينما سمح وجودي لك بإغفال هذا النسيان. إلى حد ان أثنيتُ على غياب حضورك بظهوري الحقيقيّ.

لكن النسيان يتذكّر نفسه عند فقدان ذاكرته.

وها هنا أنتِ، في هذه الأمسية بالذات، تواجهين العزاء الخالي من التذكّر. بعتِ واشتريتِ فراغاً لا يثير أيّة ذاكرة. فراغٌ يصرخ في صداه المرتدّ إليه. تجارةٌ تكسب فراغاً يتنصّل من قبضته. قفل يختم على حائط أسرك. دعامة لمستقبل ممكن، مستقبل– لو أخذ– يدفع كل شيء إلى الانهيار الأخير.

أين أنت؟ أين أنا؟ كيف أقصّ أثرَك؟ من الواحدة إلى الأخرى؟ من الواحدة في الأخرى؟

تهبطين تهبطين من جديد تحت الأرض. وحيدة. حيث يبدو مشينا. مشت الواحدة، مشت الأخرى. الواحدة أو الأخرى. تنازلتِ عن قوّتك، عن استقامتك. قست خطواتك، قست قسمات وجهك بالعزم الذي يجالس العزلة. تعودين إلى هذا الكهف الذي لم تجدي له باباً. إلى هذا القبو الذي نسيتِ عتبته. إلى هذا الخرق في ذاكرتك حيث سكوت طلق ولادتي منك قد وأد– سكوت انفصالي، غير المنقطع عنك. عن ضبابية حملك بي.

ماذا حصل في عتمة بطنك لتخفي وجودي عنك؟ بين أنتِ وأنا، كيف تختلف الواحدة عن الأخرى؟ أيّ خيال أو أيّ نور أضاء داخلَك وأنت تحملين بي؟ ألم تشعّي وأنا أكبر، وقد علقت في أفق جسدك؟ أولم تشعري بالكدر حين ارتوت جذوري بتربتك؟ كوردة شربت لتنمو بنفسها. لتتأمل نفسها دون البحث عن صورتها. تفتّحٌ لا يغريهِ أيّ تقولب. إزهارٌ يجتهد حدوداً جديدة. تصميم يغيّر ذاته في كل خطوة. حسب ساعات النهار. يفتح دفق حياته. دوران، انصراف، عودة حسب ما يدفعها نحو شعاع الخلق أو الظهور، أو إمساك قرب مخبأ سقايتها الأولى؛ تسعد عند مناخ خالٍ من الذِهان. تصل إلى لحظة الفرح لا بسبب تحديقة العيون في بحثها عن غموضها لكن بذروة إيقاعها الخاص ومقاسه. مكتملة التفتّح، محتجزة بسداد الرؤية الضائعة. بضيق من الجانب الأعمى لسؤال دون إجابة.

ألم أكن ضمانتك المتوقّعة؟ صورتك الجانبية التي سرقتها الأخرى منك؟ الجلد الذي قد تزيله الأخرى عنك؟ مشتتةً عن معرفة الذات، تُلقين عليّ بعذابات ضياعك هذا باستمرار، بكل خطوة، حتى تشكلين بي قدرك المجهول. لم ولن تكتمل (شخصيتك) إلا بصورة سلبية تعودين بها إلى نفسك/إليّ.

«ها هي هنا التي سأكونها، أو كنتها أو أتمنى أن أكونها»– هكذا رغِبتني عند ولادتي؟ وكيف أولد من الفراغ؟ أين أولد خارج ذاتك؟ فحتى حين أنهيتِ تصميمي على شاكلتك لم أكن خرجت منك بعد.

أمي أطعمتني مع حليبك الصقيع.

وإذ أرحل تفقدين انعكاس الدنيا، دنياك أنت. وإذ أبقى أبقى الكفالة لموتك؟ كل منا تفقد صورها: وجهها وحيوية جسدها. وتندب الواحدة الأخرى. ويشير عجزي إلى اختفائك في المرآة.

وحين أرحل، ألا يشكّل رحيلي نفيك النهائي؟

ومتى أتناوب فقدان الوعي بالذات؟ أنا أيضاً يأسرني الرجل حين يحدّق بي؛ أنا أيضاً عديمة الإرادة. بلا حراك الا من الانعكاس الذي ينتظره مني. يحيلني إلى وجه يشكّله لي وبه ينظر إلى نفسه. يسافر على هوى أحلامه وسراباتها. أقع في شرك الأمومة.

* * *

ألم تسمحي لنفسك بأن أضع يدي عليك؟ ألم أمسك رأسك بين يديّ؟ ألم أعرف جسدك يتدفق رغبةً؟ يتحسس مكان عبوره، عبوره بيننا. تشكّل من تحديقتك مادة هوائية تكسوني وتحميني من التماثل بك. من فمك/فمي، أفق بلا نهاية. بك/بي ومنك/مني، بلباس أو بعُري، سببه نوع جنسنا. مقاسنا. ليس واسعاً ولا ضيّقاً. لا كبيراً ولا صغيراً. مفتوح بغير شرخ.

ولماذا بعد أتأذّى؟ ألم أحز على شفتيّ / شفتيك. هذا الجسد الذي يكشف فقط على الأشياء التي لم ننتهِ من قولها. حاجز الصمت هذا حيث باستمرار تغلف إحدانا الأخرى لنولد من جديد. إلى حيث نأتي لنعيد معرفتنا بأنفسنا وببعضنا، حتى نصبح نساءً وأمّهاتٍ مرّة بعد الأخرى.

لكن لم يسبق وأن تكلّمنا معاً. وهذا الجحيم يفصل بيننا إلى درجة أني لا أتركك البتة لأني أرتدّ دائماً إلى رحمك. مدفونة بالعتمة. بسجن الالتصاق.

ولا تحرّك الواحدة دون الأخرى. ولكن لا نمشي إلاّ معاً. وحين تأتي الواحدة منا إلى العالم تهبط الأخرى تحت الأرض. حين تحمل الواحدة، تموت الأخرى. ويا أمي ما أتمناه هو أن نقصّ حبل الخلاص.

المقدّمة

تواجه إريغاري في منهج تحليليّ ولغة شعرية حسّيّة أداء الأمومة المتوارثة قاصدةً تجريد المرأة/الأم من مواد الرعاية التقليدية بغرض إعادة مواد أخرى إليها كاملةً. فالتحرّر من هذا الدور ليس دعوة إلى رفض الأم أو كرهها أو اختزال دورها بل هو دعوة لخلق الحدود الضروريّة للفصل بين المرأة والأم.

مثلاً تقوم المرأة بدور أمومي يدمر الابنة من داخلها ويجعلها عاجزة. فالأم التي لا تتبادل وابنتها إلا بضاعة الإطعام المبالغ فيه سرعان ما تتحوّل الأم بهذا السلوك إلى مادة الطعام نفسها. فتختنق البنت لا بالدم أو الحليب أو العسل بل بالأم. وتحكي البنت عن النور الضئيل الذي يصلها، كالأمل في التحرّر والاستقلال. وحين تصف سكَنَها بين بيتين وما تصنعه من حركات بيديها تصوّر ذلك لإثارة لغة الرغبة وتصعيدها قبل أن تواجه قامة الأم كمقامها. ومحور «البيت» مقصود به محور «اللغة» أيّ البيت الذي تحتاج إليه النساء ويرمز إلى اللغة والتمثيلات والتصوّرات المغيّبة.

ثم تدخلنا إيريغاري إلى صالة لعبة التماثل والاختلاف- أي أن نتماثل بعضنا ببعض لكن بغرض أن تقام بيننا مساحة الاختلاف- حتى انها تشبّه هذه اللعبة بلعبة «كرة الطائرة» التي تتبادلها الأيدي بينما الكرة المتبادلة هنا هي الصورة المعكوسة التي تبدأ بها لعبة الرمي والتلّقي. وهذه اللعبة المسيّسة في تبادل الصور تدل على صعوبة الاستقلال بالذات من جانب الأم باتّجاه ابنتها ومن جانب البنت باتّجاه أمّها، فتصبحان في هذه اللعبة مرآتين متقابلتين. وحاجة إظهار الاختلاف ضرورية ليس فقط بين الجنسين (بين المرأة والرجل) لكن ضمن الجنس الواحد (بين النساء أو بين الرجال). ثم تعود فتذكرنا إيريغاري بمادة الطعام وتنزلها منزلة السوائل بقصد الإشارة إلى جسد الأم لأن الحليب يذكّرنا بصدر الأم والدم والعسل واللحم جميعها مواد لها علاقة بالجسد وملامسته. لكن هذه السوائل تصبح جوهر الأم الطبيعي لأنها لا تقدّم غيرها مادة للحب والتبادل. إلى درجة أن الأم والابنة تتقلّصان إلى سلع الاستهلاك التي تستنفدهما. وهذا ما نشهده في بعض مجتمعاتنا اللبنانية، فأحياناً لا نرى الأم تطعم إلى حدّ التقيّؤ بل نرى الخادمة السريلانكية تقوم مقام الأم في عملية الإملاء والإفراغ هذه دون الانتباه إلى أن دور الأم لا يقتصر على موضوع الغذاء. فتصاب البنت بالبدانة. وهذا ما نراه يكثر في بعض المجتمعات العربية (البدانة في المجتمع السعودي عند الفتيات والفتيان أيضاً) وهذه البدانة هي نفسية ومعنوية وليس جسمانية أو غددية.

وتقرر البنت أن تهجر بيت الأم إلى بيت الأب (البيت هنا كمرجع للاختلاف وليس كمرجع أبوي) لأنه أبقى لها مكاناً فارغاً (ليس من الطعام فقط) لتختبر ذاتها وتتحرّر عن طريق الاختلاف من ذات موروثة أو مفترضة. ولأنها تطالب بحقّها في الاختلاف، تقول: «لن أصبح أبداً على صورتك.»

وتمرض وتصف مرضها وعلاج الطب وقواعد الأطباء لتنتقل إلى مرحلة

استرداد العافية وتربطها بخلاصها من أسر أمّها. وتنتقل إلى العلاقة بينها وبين الرجل في محاولة لتحويل حبها لأمها إلى حب للرجل. أو بمعنى آخر لا تصل المرأة إلى حب الرجل إلا بعد أن تتحرّر من رغبتها في الأم، أي الرغبة في الحب الأول الذي يعود إلى الأم البدائية أي علاقة الطفولة الأولى بجسد الأم، العلاقة المبكرة التي تولد وقتها أو عندها الرغبات قبل أن يتعرف الطفل إلى وجود الأب ولغته وقوانينه.

تفشل وتترك الرجل كما تركت أمها. وتصب غضبها على الأم المقنّعة، الأم الوحيدة، الأم الموزّعة أجزاءً، الأم التي تنزف، الأم التي أضاعت مرحلة النقلة بينها وبين ابنتها. وتواجه الأم بحقيقة استقلالها عنها ومأساة الفراغ التي تشعر بها الأم:

«يا أمي! ليس هنا من أحد لتدخلك ذاتها...... وبرحيلي خسرت المكان الذي تكشّف عن وجودك حينها.»

وترينا أن اعتماد الأم على البنت هو اعتماد أناني غايته أن تحقّق الأم وجودها بابنتها لعدم ثقتها بوجودها منفردة وهذا احتياج ضعفاء النفوس، نفوس تتكّل على أن استمرار وجود الواحد وقف على وجود الآخر. ثم تكرر بلغة مؤلمة صور الأم الأنانية: «لقد رغبتني؟ أهذا هو نوع حبّك، أن تأسرني رغبتك لانعكاس صورتك وأن أتحوّل إلى صنم.» وتصوّر بلغة مخيفة صورة الأم غير المتحرّرة ذاتيّاً:

«في المكان حيث أردت الظهور لم تتلقّي إلا قصور الذات.»

ويتألّق التحليل النفسي لهذا الدور من الأمومة إلى مستوى ترينا به إيريغاري وصول الأم إلى الأسر الذي سبق وأن تحرّرت منه البنت عندما قررت التخلّي عن أمها (الدور الموروث من هذه الأم). وتشير إلى موت الأم المعنوي وفقدانها صورتها التي انتظرتها عن ابنتها.

وبينما هي تنهي وجود أمها المعنوي لأنه وجود مثالي، وجودٌ بلا فروق تُغني وتزيد، تعود فتذكّر بعلاقة التماثل بين البنت والأم وكأنها علاقة حب/ كراهية - علاقة الجسد/ بالصرّة التي تذكّر بحبل الخلاص مستخدمةً لغة حسّية و شعرية لتعلن:

«من فمك/فمي، أفقٌ إلى ما لا نهاية...بلباس أو بعُري، سببه نوع جنسنا.»

وكأنها بالنهاية تظهر تضامنها مع الفهم الذي يجب أن يكون بين نساء وأمهات الجنس الواحد. فمواجهة الأم المباشرة للتعرف إلى ذاتها يشكل الرغبة في معرفة الذات. ودعوة الأم إلى الاستقلال بذاتها هي دعوة للاستقلال بالذات. والعودة إليها

هي العودة إلى اللاّوعي ورغبته الحقيقية في معرفة ومواجهة الذات. فتكرّر عنوان كلمتها أو قصيدتها: «ولا تحرك الواحدة دون الأخرى».

* * *

لوس إيريغاري هي عالمة وأستاذة في التنظير النِّسوي، الفلسفة، التحليل النفسي والألسنية. ساهمت في تطوير التحليل النفسي النظري وبالأخصّ في موضعة اللغة والحضارة للرجل والمرأة–على شكل مختلف–من خلال التصوير «الرمزي». إن انتقادها للأمّ التقليديّة، «غير الكاملة» كما وصفها فرويد، (بشكل انتقدته جميع التيّارات النِّسوية) هو انتقاد لإعادة إنتاج المثال، الصورة طبق الأصل، بغاية زحزحة كل أشكال الإنتاج المعروفة وخاصّة الخطاب. فالرمزي كما تؤكّد إيريغاري هو التشبيهات الذكوريّة التي سرعان ما تتحوّل إلى قيم اجتماعيّة. إن استخدام إيريغاري للتحليل النفسي واللغة الشعرية الحسّية في هذه المقالة مقصود لغاية استراتيجيّة وليس للإبقاء على خطاب حسّي يتعلق بجسد الأنثى/الأم. فتصوّر إيريغاري وزميلاتها في Écriture feminine جوليا كريستيفا وهلن سيكسو هو أن القياس بين الجسد واللغة ممكن بغرض زحزحة اللغة الذكورية السائدة إلى حين دخول لغة الأنثى القابعة في الظلام والخفاء والذِهان. والعودة إلى جسد الأم في هذه المقالة وغيرها Et l'une ne bouge pas sans l'autre 1979, Corps-à-corps avec la mère 1981, Passions élémentaire 1982. لا يشير إلى انكفاء رجعي إلى العضوي أو التشريحي، بل يشير إلى دعوة الخروج من تكرار أنظمة الخطاب التي لا معنى لها والدخول إلى علم تشكّل آخر (مورفولوجي).

إن كتابة إيريغاري الشعرية في مقالة تتعلّق بالأم لها أكثر من مبرّر، وهذه من القضايا التي سيحملها القارئ/ة معه كأسئلة. إنما قد يلذّ للبعض قراءة النصّ بلغته الأصليّة (الفرنسية).[٢] وقد حاولت قدر المستطاع اللعب على قواعد اللغة العربية بقصد خلق أجواء مماثلة لخطاب إيريغاري، وربما أصبت حيناً وأخطأت أحياناً أخرى، لكن رسالة إيريغاري الأساسيّة في زحزحة مفاهيم معيّنة عن طريق زحزحة اللغة وتمثيلاتها المعهودة هي بيت القصيد. وأرجو أن تكون قد وصلت.

---

(٢) شكر خاص إلى الزميلة جمانة غزّاوي لاطلاعها على الترجمة العربية ومقاربتها للنصّ الفرنسي. وشكر خاص إلى الزميل حسن داوود لتحريره الترجمة العربية.

نص إبداعي

نوع من الجنون

قوانين الدولة كانت منتهكة... ما من تقليد، ما من شرعة أخلاقية كانت موضع احترام... وفي انهيار القيم كلها استبد نوع من الجنون.

شتيفان تسفايغ

لم يكن الهاتف قد رنّ إلاّ مرتين عندما رَفعتْ السماعة. كانت تظن أنها لن تتآلف أبداً مع اللامبالاة الذي يُعامل بها الهاتف في باريس. هي نفسها كثيراً ما كانت تغلق الخط حين تتصل ولا يرد أحد بعد ثلاث مرات أو أربع من قرع الجرس. الناس هنا لا يحسّون أن شيئاً يدفعهم للوثوب إلى الهاتف حين يبدأ بالرنين، ربما لأن بيوتهم أقل ازدحاماً، واحتمالات أن يكون الجالس على مقربة من الهاتف أقل.

لكن ما إن رفعتْ السماعة حتى عرفت من الخشخشة الخفيفة المألوفة على الخط أن النداء من لبنان.

«هنا بيروت، إبقَ على الخط.» صوت عاملة تليفون ضجرة في بيروت.

غاص قلبها. ما كان بوسعها إلا أن تشعر بالتوتر عندما توصَل ببيروت، وكانت تستجيب بسخط لانفعال لاعقلاني يمتلكها. فهي كلّما كانت تُشدّ إلى البلد الذي تركته كانت لا تتمالك نفسها تماماً فيما يرتفع نبضها بوتيرة متسارعة، وأسرع مما تريد.

مي غصوب

بنفاد صبر، وامتعاض، انتظرت وصول المكالمة.

«تكلم، يا عيني، معك باريس،» قال الصوت التلقائي نفسه لمن كان يتصل من الطرف الآخر أياً كان. وكان هو. كان الصوت نفسه الذي ظنتْ أنها أسكتته في أذنيها إلى الأبد. هذا الصوت لا مكان له هنا. كان عليه أن يبقى حيث تُرك، مكتوماً تحت ركام المباني المنهارة في بيروت، محبوساً بأمان وراء التدقيق الصارم لسلطات الهجرة. ليس من حقه التطفل على عالمها الجديد، على منفاها الباريسي الدافئ. هذا الصوت، صوته، كان تعدياً، تجاوزاً على فضائها المكتسَب. أعادت السماعة وسط تحياته اليائسة: «هل تسمعيني...؟ هالو...؟ هالو...؟»...

أغلقتْ السماعة بقوة. غاضبة عليه، نعم عليه، وعليه وحده. لم يكن من شأنه أن ينتهك صفاءها الجديد. إنه ينتمي إلى حرب هربت منها ولا تريد أبداً مَن يذكّرها بها مرة أخرى.

رنّ الجرس ثانية. هرعت لنزعه من القابس. صوت الصمت في الغرفة كان عميقاً ومدمّراً. أدارت ظهرها للطاولة التي وُضع عليها الهاتف الجامد بلا حياة، ومشت صوب النافذة. حاولت أن تضوي نفسها في المشهد المسحور لسطوح منحدرة تتزاحم على المكان في أفق المدينة. كانت محظوظة بالعثور على هذه الشقة. هنا، في الدور العلوي لهذه البناية القديمة، في نهاية شارع ضيّق ملتوٍ، L'Impasse des Eaux Douces في قلب الحي اللاتيني، أمضت ساعات تراقب الزوايا التي صنعتها تلك السطوح المتراصّة، متخيّلة الحيوات التي كانت تمور تحتها.

كانت هذه بانوراما من صنعها وتصميمها هي. واقع ملموس، بنقطة بداية حدّدتها كفعل إرادي، مختزلة ماضيها ومروّضة ذكرياتها. صوته، وجوده يجب ألاّ يتدخّل في هذا المشهد... لن تسمح بذلك... لا تتحمّل أن تسمح به...

جاء ألن من ورائها ووضع يديه على كتفيها. جفلتْ. «ما بك يا حبيبتي؟ عفواً، ألم تسمعيني داخلاً؟ مَن كان على الهاتف؟»

«لا أحد. نزعتُ الهاتف من توصيلته. لا أريد الحديث عن الأمر.»

وجهُ ألن لم يكن قادراً على أن يخفي انفعالاً. استهواها صفاء عينيه، طبعه البارد، الرصين. التقته في المكتبة الإنكليزية عصراً ذات سبتٍ قبل أشهر، وهو الآن يمكث عندها حين يأتي إلى باريس. كان يأتي بانتظام، بين كل عطلة وأخرى من نهاية الأسبوع، وخلال الإجازات الأكاديمية. كانت تقدّر حرصه وتثمّن موقفه المسترخي. شعرت دائماً بالامتنان له بسبب عدم إلحاحه على طلب إيضاحات. لكن

رصانته في تلك اللحظة بدت مسرحية بمعنى ما. كانت تثير الغيظ. كان لها رائحة التهذيب المكبوت مما أفقدها سحرها.

ابتعدت عنه بصورة مفاجئة، تناولت سترتها وغادرت الشقة. نزلت درجات السلم بسرعة متجنبة قطة مدام دوفور ومتجاهلة تحديق عينيها الخضراوين الثاقبتين. غادرت البناية بخطى ثابتة قبل أن تمنح بوّابة المبنى فرصة الخروج من ركنها المنزوي وإشغالها بواحد من أحاديثها المملة.

مشت متوترة ومسرعة. مشية امرأة مهمومة. امرأة مغتمّة لإصرار ماضيها على اللحاق بها والتواصل فجأة بالحاضر. لم يبقَ مكان في قلبها لنكد الشعور بالذنب الذي أثارته سحنة ألن الحزينة. رفضُها الجارح للطفه كان أحسن ما استطاعت أن تفعله. كأنها بحاجة إلى إفراغ قلبها تماماً لكي تتمكن من البقاء. هي أصلاً استجمعت كل ما نجحت في حشده من قسوة كي تهجر الصوت الذي عاد اليوم ليظهر في حياتها. ظنت بشكل ما أن الرجل الذي سمعت صوته اليائس على الهاتف ظل حبيساً في المدينة التي هجرتها، منزاحاً إلى حقبة ولّت ومضت.

لأول مرة منذ انتقالها إلى شقتها الباريسية مشت في شوارع حيّها الأليفة غافلة عن الألوان ومباهج سوق الخضار المزدحم، غير عابئة بمغريات واجهات متاجره. لم تشعر بالنسمة المنعشة المعلنة عن مجيء الربيع قبل ميعاده. لم تتوقف عند المقهى - البسترو الذي ترتاده للتلذذ بعادتها الكسولة في احتساء «الإكسبريسو» وهي تراقب المارة. كانت بحاجة إلى مواصلة السير. تمشي بعناد إلى الأمام. تحاول منع أفكارها من العودة إلى المكان الذي انبعث منه صوته، إلى الذكريات المبتورة لمدينة ممزقة كانت ذات يوم مدينتها.

***

كانت بيروت تعبق بشذى أرض نديّة. رائحة حلوة، لعوب ملأت منخارَيْها. شمس ظافرة أماطت الستار الرمادي عن السماء مهدّئة غضبها بمسحة من زُرقة. وبدا أن الخوف من الموت الذي أفرغ الشوارع وتركها حزينة، قد تلاشى كما لو بمعجزة. جسدُها شعر بقوة وخطتْ إلى الأمام منشرحة الأسارير. الحياة بدأت تدبّ في مخيم صبرا الفلسطيني مع استيقاظه. رائحة شاي داكن كانت تنبعث من أكواخ متداعية متسللة عبر الفتحات المتوجسة لمداخلها الضيقة. أطفال اندفعوا طائشين في الأزقة الضيقة، وأمهاتهم يرششن الأرض الإسمنتية بالماء ثم يكنسنه بسخاء إلى خارج بيوتهن التي تتجمّع كالعناقيد. المخيم، المترع عادة بالضجيج والحركة، كان

لم يزل يختبر الصمت المكشوف الذي يعقب الغضب وهدير القتال. داخل المركز الطبي الذي كانت متوجهة إليه، بدَت الجدران بيضاء رائقة، والأصوات خافتة. إلا أن سلوك الموظفين الحذر لم يكن كافياً ليحمي مرضاهم من العالم الذي في الخارج. كيف يمكن لأحد أن يأمل بفصل «الداخل» عن «الخارج» في مكان سطحه مصنوع من الصفيح المتموج وبابه الأمامي مفتوح مباشرة على صخب الزقاق والغبار الغازية من أرضه المعبّدة؟ كانت تتساءل عن ذلك كلما دخلت «المستشفى»، كما كان يروق لسكان المخيم أن يسموه. كانت تعمل هناك، تساعد في تصنيف الأدوية على الرفوف وترجمة تعليماتها إلى العربية. كانت تأتي إلى هنا مرة في الأسبوع منذ بداية الحرب، وهنا لأول مرة أحست أن ارتباطها بالحركة اليسارية ذو معنى، وأنه ارتباط ملموس. هنا، بين الشكاوى الغاضبة وتسليم الجرحى الصبور بمصابهم، قريباً من مجموعة فوضوية من النساء اللائي حملن أطفالاً مرضى وحاولن تهدئة الأصحاء الذين اصطحبنهم معهن، أدركتْ مدى قرفها من أفراد طبقتها، الطبقة الوسطى، وخوفهم المَرَضي من هؤلاء الناس، وعدم إشفاقهم على «المخيمات غير الصحية» التي لم يطأ أحدهم ذات يوم أرضها.

بدتْ غريبة في المخيم، وهذا كان يزعجها. وطريقتها في الملبس كانت تختلف عن التنانير الطويلة الممتلئة التي تلبسها نساء المخيم، أو مناديل الرأس التي غطت رؤوسهن باحتشام. لم تتمكن قط من حمل نفسها على لعبة التظاهر بـ«الأصالة» وتغيّر جينزها بفستان طويل قبيل دخول المخيم لأداء واجباتها النضالية، كما فعل البعض من رفيقاتها.

كانت ترى في ذلك حركة مسرحية، ولم يكن لديها متسع من الوقت لما كانت تعتبره «نفاقاً شعبوياً». كانت تسير في الأزقة الموحلة بخطى مسرعة قليلاً تنمّ عن امرأة تبدو واثقة من نفسها.

أجواء الهياج في المركز الطبي أحدثها وجود سيارتي جيب مكشوفتين انحشرتا داخل الزقاق المجاور. كان عليها أن تمشي على الأطراف للوصول إلى الباب والدخول إلى المركز. توقف هو عن الكلام وتوجهت عيناه صوب الباب حيث كانت واقفة. كانت الممرضتان والطبيب جالسين أمامه، وهي بالكاد تراهم. كانت هناك شلّة من الرجال المسلحين يقفون في باحة الاستقبال، التي قلّصوا مساحتها بدرجة كبيرة، مفسدين الجو بدخان المالبورو. مرّت لحظات ثقيلة، تخللها صمت محرِج، قبل أن يقدمها الطبيب ويدعوها إلى الجلوس.

أبو فراس لم يكن طويل القامة كما كانت تتصور. كان مدار كلام كثير منذ اندلاع الحرب. تجنّبتْ النظر إليه، خشية أن تشي بانفعالها الداخلي وفضولها الحاد. كان له صيت ذائع بكونه قائداً صلباً، ومحارباً خطراً ومناوراً من وراء الكواليس. كانت تعرف أنه يراقبها وهو يسأل الموظفين الصحيين عن احتياجاتهم والمشاكل التي يواجهها المستوصف في تلك الأوقات العصيبة. واصل الرجال تدخين سجائرهم بشراهة معدّلين الكلاشينكوفات على مناكبهم وهم يصغون صامتين بالتركيز العميق للمدخنين الذين لا تسقط السيجارة من أيديهم. أما هو فكان يمسك سيجارته بين إبهامه وسبابته –يد ناحلة بدا أن حرارة عميقة تنبعث منها.

لم تكن قادرة على فهم ما يدور من حديث، وكانت عاجزة عن منع نفسها من النظر إلى يديه بأثرهما القوي الذي يتخذ شكل زوايا حادّة. السحابة التي لفّت الغرفة بالدخان غشت رؤيتها وإحساسها بالواقع. فوجئتْ عندما أدركت أنه كان يقول كلمات الوداع ويهم بالمغادرة، يتبعه مقاتلوه وحراسه الذين بدوا الآن مفعمين حيوية وانتباهاً. حين تلاشى صرير إطارات السيارات المغادرة توجهت إلى الرفوف التي جاءت لترتيبها. حركاتها وأفكارها كانت أبطأ مما كان في نيّتها. مرأى عينيه السوداوين الثاقبتين، وحركة يديه الدافئتين الرشيقتين ظلا عالقين بعناد في ذهنها. وانتبهت على حين غرّة إلى أنه، بخلاف غالبية الرجال العرب، كان بلا شنب. وجدت هذه الحقيقة مسليّة. وضبطت نفسها تبتسم.

بعد ساعة أو نحو ذلك، وكانت الأدوية على الرف لا تزال غير مترتّبة، سمعت عويل سيارة تتوقف في الزقاق خارج المستوصف. واحد من حراس أبو فراس دخل الغرفة فجأة وهو يمص سيجارته المالبورو غير عابئ على الإطلاق بيافطة الباب التي تعلن «رجاءً إقرع الباب قبل الدخول».

«أبو فراس طلب مني أن آخذك إلى مكتبه. ثمة شيء عاجل يحتاج إلى مناقشته معكِ. سأنقلك إلى هناك بالسيارة.» كانت تعرف أن عليها أن تبدي تردداً، أو ربما تقول شيئاً عن ضرورة إتمام عملها، لكنها كانت عاجزة عن مقاومة رغبتها في الانقياد إليه. التقطت سترتها الزرقاء الغامقة التي ترتديها خلال القيام بمهماتها النضالية، ولكن حين ارتدتها تمنت لو أنها لم تبذل كل ما بذلته كي تبدو باهتة الشكل، مهملة الهندام.

لاقتْ صعوبة في أن تتذكّر كيف دخلت مكتبه أو كيف تسلّقت سلم البناية التي أخذها الحارس إليها. لم تكن في الواقع تستمع إلى خطاب أبو فراس الطويل والجاد

في لهجته، عن مدى حاجة الثورة إلى أشخاص مثلها. بدا أن جمَلَه لا تتألف من كلمات. رسائل، عبارات ضاعت في غمار رغبتها في الاقتراب من يديه، في الاستدفاء بالحرارة المنبعثة من حركاتها المتوترة. دهشت بسرور عندما قال لحارسه أنه لم يعد يحتاج إليه. صوت حارسه مودعاً بدا بغرابة صوتاً غير رمادي. سمعتْ الباب يوصد، ولاإرادياً تحرّكت نحو تلك اليدين ونحوه.

كان هذا بداية عاطفة غارقة في معمعان الحرب والخطر، مؤجّجة بسرّيتها وقربها من الموت والدمار. لقد اندفعتْ إلى مغامرة تحف الأخطار بشذوذها عن المألوف، تعرف مخاطرها لكنها لا تفعل شيئاً لمقاومتها.

***

وصلتْ إلى بلاس دو شاتليه بعدما مشتْ عبر بولفار سان ميشال دون علم منها. غاظها انفتاح الميدان الذي قُصر على المشاة وحركته النشيطة، وأعادها إلى الحاضر. لماذا تمشي بهذه السرعة... تتصرف وكأنها امرأة هاربة... مطاردة؟ بيروت كانت بعيدة. وهي لم تُعدم الخيارات. تستطيع أن تدخل مسرح Théatre de la Ville أو تمشي عائدة إلى الجسر. تستطيع أن تمنح نفسها لانسياب السين ناعماً وتترك لمواساة حضوره أن يهدّئها. لم يكن عليها أن تهرع كما كانت. تستطيع أن تدفع الذكريات إلى الوراء وأن تحدد نقطة بداية أحدث عهداً لتاريخها الشخصي، فتطيل ما كانت أنجزته قبل المكالمة اللعينة عصر ذلك اليوم. ما فعلته في بيروت، وطريقة تصرفها هناك، لم يكن مسؤوليتها بل حدث وسط ضرب من الجنون المعمَّم. إنها الآن تعيش هنا، بجوار نهر متألق عظيم، في مدينة عظيمة زاخرة بالحياة، تبعد سنوات ضوئية عن الموت الذي شهدته خلال تلك الفترة الغريبة من حياتها.

لكن تلك المرات الثلاث التي رنّ فيها الهاتف بدت كافية لسلبها راحة البال، وأعادت مشاعر بالذنب غريبة لا تُسبر. وما من يقين يحملها الآن على الاندفاع هائمة على أرصفة المدينة، في خطى أسرع مما اعتادت عليه باريس.

«المسؤولية مسؤوليتي أنا أيضاً. لقد أعمتني العاطفة المشبوبة وفقدتُ صفاء ذهني. خدعتُ نفسي بأني أنخرط في ثورة، ثورة تنهي البؤس والظلم. لكني قمتُ باستغلاله. استخدمته لكي أنتمي. لكي أجني طاقة من خوف الموت الذي كان منتشراً. دفنتُ الخوف في جسدي تحت الدفء الذي كان ينبعث من احتضانه لي. كانت هناك ليلة لم أتمكن من ترك جسده وبقيتُ أشدّه إلى داخلي على إيقاع القصف الذي كان يدكّ بلا هوادة، هازّاً بعنف البناية التي التقينا فيها خلسة. كنتُ أكبح بغبطة

الأسئلة عن معنى ما يحدث، عن تناقضه مع المُثُل التي انطلقنا كلنا منها. دأبتُ على الحركة والانشغال بأشياء أفعلها بدلاً من التوقف والاستفهام. فقدتُ كل إحساس بما هو طبيعي واستدعيتُ جسده ليأخذني أعمق في دوار المجهول...».

لا بد أنها كانت تتكلم مع نفسها. كان الناس يرمقونها بنظرات محرَجة. كانت تتكلم بصوت عال كأنها تريد أن تسمع بنفسها ما كانت لا تريد قوله لأي أحد آخر.

مداراة ألن كانت لبقة، لكنها تمنّت لو أنه كان أكثر صرامة وأقل احتراماً للسنوات التي سبقت لقاءه بها. ربما حينذاك ما كانت لتنتهي كامرأة مخبولة تتكلم مع نفسها على أرصفة باريس. صارت الآن في شارع ريفولي تقترب من اللوفر، فيما الشوارع تغص بالسياح. شعرت بتعاطف أكبر معهم في تلك اللحظة، إذ رأت نفسها فجأة زائرة في باريس لا شخصاً بدأت حياته هنا قبل أشهر قليلة لا أكثر، على بوابات مطار أورلي.

انعطفت يميناً عند Palais Royal وبحثت عن مقهى تستطيع أن تريح فيه قدميها وتهدّئ ذهنها المعذّب بفنجان إسبرسو. كانت بحاجة إلى تمالك نفسها. كانت تعرف أنها لم تعد قادرة على الإفلات من تطفّل قصتها ذاتها. طلبت قنينة ماء معدني وفنجان قهوة، وشعرت بالرغبة في تدخين سيجارة، كما لو أن فعل التدخين الذي أقلعت عنه، يمكن أن يحسم قرارها بالنظر إلى الوراء. بحثتْ في جيبها وعثرت على فاتورة كهرباء قديمة وقلم حبر جاف كان مكسوراً في أحد طرفيه. كان النادل ينظف المحل قبل انتهاء نوبته، فدفعتْ الحساب بسرعة متلهّفة كي تُترك وحدها مع خواطرها والقفا الأبيض لفاتورة الكهرباء.

«عزيزي أبو فراس،

أنتَ، إذاً، من كان على الهاتف اليوم! أعتذر عن قطع الاتصال معك. لم أتمكن من سماع صوتك، مثلما أني غير قادرة على مواجهة المرأة التي كنتُها عندما كنتُ قريبة منك. أعلم أنك عانيت الأمرّين عندما اختفيتُ. ما زلتُ أرى اليأس في عينيك عندما نظرتَ إلى برودي المفاجئ وتحوّلي الذي لا تفسير له خلال لقاءنا الأخير. المرأة التي كانت تصبو إلى لمساتك، التي بدت أن رغباتها لا ترتوي أبداً، كانت تدير ظهرها عليك رافضة أن تقدم حتى ولو نأمة من تفسير. هذه المرأة كانت حائرة بتحولها ذاته وما كانت لتستطيع أن تقدم مبرراً لا تبرير له.

ألا ترى: عندما جُرح شقيقي، أصرّيتَ على المجيء إلى المستشفى لتكون قريباً مني وتكون عوناً لي في مواساة والديّ. لكن جراح شقيقي وقنوط والديّ دفعتني

عائدة إلى عالمي السابق، العالم الذي كانت الحرب ومأساة المكتوين بها حقيقية فيه كما اللحم المحترق. الوجوه المهشمة التي كانت تنتظر بقلق في أروقة المستشفى، بدّدت تجريد الحرب. ولم يعد ممكناً سماع الحرب بوصفها ذروة أصوات متفجّرة، أو النظر إليها على أنها مجرد سماوات جميلة بغرابة في ألق الليل. عاطفتي نحوك انفصلت عن جسدي لتخلف وراءها مذاقاً فظيعاً. أفكاري كانت متعبة كأنها مغشيّة بوجع صداع آني. ألم شقيقي كشف فجأة كل الجراح التي اخترتُ أن لا أراها في الأشهر التي كنا معاً فيها. الوجوه المعذبة لزوجات وأصدقاء وذوي أولئك الجرحى الملتاعين بالألم، محشورين في أروقة المستشفى المكتظة، أضحت شهادات لا تُطاق على لامبالاتي أنا. ما كان عليك أن تأتي إلى هذه الأروقة، إلى واقع أُسرتي. ما كان عليك أن تصبح حقيقياً. لم يكن لنا إلا الانتماء إلى غير الطبيعي، ولم نكن حقيقيين إلا في واقع كان شاذاً. وبسبب هذا وحده كنا نمارس الحب محمومين واشتدت عاطفتنا اتقاداً.

لم أنس لهفتي تلك الليلة عندما أدركتُ أن أحد زوارك مهرّب دولي. تحدث عن قادة المعسكر الآخر، «أعدائك»، باطلاع واسع. حاولتُ التنصت إلى الحديث من خلال الباب المغلق. لم أشعر بحاجة إلى إصدار حكم على ذلك الرجل وقتذاك. أنت، من الجهة الأخرى، لم تكن تريد أن أختلط به. أذكُر قولك لي بعدما غادر: «إن طريق التحرر لا يمكن أن يكون نقياً ونظيفاً.» كنتَ لا تحبه. أردتُ الانضمام إليك معه في الغرفة ولكنك لم تسمح لي. لهفتي كانت شبيهة بلهفة مراهقة تقابل ممثلاً من فيلم شاهدَتْه للتوّ. كنتُ سمعتُ عن هؤلاء المهربين الذين لا صديق لهم ولا قضية، ويتعاملون مع الجانبين المتصارعين على السواء، وكان لدي فضول لرؤية واحد منهم بلحمه ودمه. كان الأمر عندي لعبة. كدخول عالم محظور. عندك كان عملاً قذراً لا بد أن تنجزه، وعملاً لم ترد أن تكون لي صلة به. غادرتُ البلاد ما إن انتهى الخطر الذي كان يهدد حياة شقيقي. لم أنظر إلى الوراء قط. بدأتُ أكره كل من يحمل سلاحاً باسم قضية. بتُّ لا أطيق تبريراتهم. حسبتُ أني بمحو الماضي أستطيع أن أمحو علاقتي ذاتها. وسأكون قادرة على أن أقول لنفسي «لم أحمل سلاحاً ذات يوم، وكل ما في الأمر أني كنتُ أحاول مساعدة أولئك الذين كان مجتمعي يضطهدهم. أغمضتُ عيني عن الفظاعات، عن حفلات الثأر ورد الفعل التي كانت منتشرة من حولي.» كنتُ لا أريد النظر إلى الجرائم التي يقترفها الرجال الذين اختلط بهم، والذين يُسمى البعض منهم اليوم شهداء. أغرقتُ عذابي في ارتعاشات الانغماس الشبق في الملذات. ما كنتُ أستطيع أن أفسر لك ذلك في حينه، لأني نفسي لم أفهمه وقتذاك.

تحصنتُ بفقدان الذاكرة لأن ذلك كان أسهل. بنيتُ عالماً بلا ماض، لكن مكالمة هاتفية واحدة كانت كافية لأن تثبت كم كان ما شيّدتُه هشاً ومفتعلاً.

كنتُ محظوظة. كانت لدي إمكانية الرحيل. كثيرون كانوا ضحايا الحرب ولم يكن لديهم ترف تجنّب التورط فيها. لكن نعيم فقدان الذاكرة يبدو قصير العمر، والرغبة في تجاهل مسؤولياتي كانت ذريعة واهية ضد الذنب. وأصعب ما علي الاعتراف به أني تعمّدتُ العمى زمناً طويلاً. وتطلّب الأمر جسد شقيقي المهشم والممزق لتحريري. فأي حق لي الآن في لوم مَنْ واصلوا انغمارهم في شذوذ الحرب؟

حاولتُ أن أتحول تحولاً كاملاً. كان علي أن أنتقل إلى وضع جديد بالكامل، أن أمضي إلى بلاد غريبة وأسمع لغة مختلفة قبل أن أتمكن من إدراك كم كان الأمر كله مريعاً ولامعقول.

كنتُ بحاجة إلى عبور آلاف الأميال لكي أعرف العيش مرة أخرى خارج هذا المهرجان من العنف والموت، وأدرك كم كانت قسوتنا قاسية فعلاً.»

في تلك اللحظة كانت تكتب على ظهر الفاتورة نفسها. لم تلحظ الحبر الأزرق يلطخ أناملها من القلم المكسور. كانت تعرف أنها لن تبعث بالرسالة أبداً لكنها كانت تحتاج إلى المضي في الكتابة. نادل جديد كان يعدُّ الموائد من حولها للعشاء. رماها بابتسامة خاطفة وتساءلتْ إن كانت تعني أنه يريد منها ترك الطاولة، أو أنه لم يقصد إزعاجها. أُضيء المزيد من المصابيح في المقهى، وتطلعتْ إلى الخارج. إشراقة السماء المضيئة اختفت، دافعةً النهار إلى سوداوية وردية–زرقاء. مجموعة من خمسة أو ستة مراهقين دخلوا المقهى بصخب. كانوا يتكلمون بصوت زاعق، مزهوين، يتدافعون بعنفوان الشباب. ألقتْ نظرة سريعة على مائدتها قبل أن تغادر، كأنما تريد أن تتأكّد أنه لم يبقَ أثر لسرّها على وجه المائدة. مشت خارجة بخطى بطيئة تواكب إيقاعات باريس مع حلول الظلام. بدأت رحلة العودة إلى البيت. كانت سعيدة بمواجهة الليل. أحستْ كأن الطريق بين «باليه رويال» وشقتها في الحي اللاتيني استراحة هادئة، وقفة جليلة بين ذكرياتها المعتمِلة ومستقبل بدا مبهماً.

ألن لم يسألها عندما عادت إلى الشقة وأعادت وصل الهاتف. لم يسأل حتى أين كانت أو كيف تشعر. كان يحضّر العشاء ويقلّب صفحات كتاب جلبه معه. كتاب ذو غلاف مجلّد عن نظرية فايرابند في المعرفة التي سيحدثها عنها بحماسة خلال العشاء. هل كانت لتقترب منه أكثر لو كان أشد إلحاحاً؟ لاحظ مداعباً، وقارصاً قليلاً، إنها احتست أكثر مما تحتسي عادة من «نبيذ الطاولة» الذي يشربان. لكنته الإنكليزية

المحبّبة، بجنوحها إلى مط وقلب الـ «in» في vin وفتح «a» في table، كانت تذكيراً لطيفاً بلقائهما الأول. اتزانه الهادئ روّح عنها، وبعد أن رفعت بسرعة ما كان على المائدة، جلست أمام مكتبها. كانت في شوق إلى الطواف مجدداً عبر ذكرياتها، وكانت تريد أن تكتب.

«أنت أيضاً كنتَ رجلاً ألطف من الرجل الذي حوّلتك إليه الحرب. أستطيع أن أشعر بشوقك المفاجئ إلى الرقة، وحاجتك لأن تلوذ إلى امرأة مارست الحب معك. لكن المرأة التي كنتُ وقتذاك رفضت كل محاولاتك لأنسنة العلاقة. تلك المرأة كانت منغمسة في اغتراب جسدها اغتراباً حسياً عن حواسها ومشاعرها. لا شيء حولي كان له معنى في الحقيقة، وأنا لم أكن أريد أن تكون حقيقياً وإنسانياً وسط البلبلة كلها. قربُ أولئك الرجال المقاتلين الذين كنتَ تتحرك في وسطهم، كان يدفعني إلى نوبات من الرفض والانشداد لم يهدِّئها إلا غمرك. وحتى وقتذاك كنتُ أمقت هذه الرجولة المفرطة التي استحوذت على مدينتي. كنتُ أهرب من مخاوفي باختبار انكشافي اختباراً لا ينتهي. كنتُ أكبح هذه المخاوف بالخوض في المخاطر، وأنت ما فتئت تُذَل بما كنتَ تحسب أنه شجاعتي. لم أكن أتكلم كثيراً معك. لم يهمني سوى معاناة الآخرين، كل الآخرين، معاناة ما كنتُ أسميه «الإنسانية». ولكني أنكرتُ إنسانية الرجل الأقرب إلي، والذي كثيراً ما كنتُ أشدّه إلى داخلي بعاطفة متقدة. عاطفتي المشبوبة كانت مجرد عَرَض من أعراض الحرب. لم يكن بوسعي قط أن أشرح لك ذلك، وعندما خلفتُ الحرب ورائي محوتُ وجودك مثل أولئك الجنود الذين يفضلون أن يتركوا خِزيَهم مدفوناً في الأرض التي أُرسلوا للقتال فيها.

ما يعذّبني الآن هو السؤال اللاذع كيف سأتصرف لو كنتُ لم أزل في قبضة القتل والقسوة الشيطانية التي استحكمت بوطني. هل كنتُ سأتمكن من الاستمرار في إغماض عيني والتهرب من خطر الأمر كله بالاختفاء داخل جسدي واختزال ذاتي إليه؟ هل كانت هذه الدوامة من الهمجية والوحشية ستجرف عقلي بالكامل؟

«لماذا كل هذا الغضب في الغرب بسبب رجل مخطوف واحد وفي بلدي كلنا نعيش كالأسرى في ساحة حرب؟» لو بقيتُ هل كنتُ سأقول أشياء فظيعة كهذه؟ ربما كنتُ خائفة من الحديث معك لأني خائفة مما كان من الجائز أن أتحول إليه لو بقيتُ في بيروت. ربما لو سمعتك تتكلم، لما شعرتُ بأني حرّة في إدانة كل القسوة التي أراها وأراقبها عن بعد؟ ربما أنا مجرد خائفة من تحمل قسطي من المسؤولية.»

تلك الليلة أخلدتْ إلى النوم دون خوفها المعهود من الليل وكوابيسه. وفي تلك الليلة حلمتْ بالسيدة نومي...

الحب والوحدة والهورمونات

إذ أبحث عن تعريف للحب يغلب ظني أنه يقع في منطقة X على حدود متداخلة بين الرغبة في تبديد الوحدة وبين استنفار لاإرادي سببه الهورمونات التي يبثّها الجسد وتتحكّم فينا بدرجات متفاوتة. فمن ناحية وجودية نهلع من وحدة نعي استحالة الخلاص منها، الوحدة التي رغم كلّ التمويه نعرف أنها مصيرنا في الوجع والموت، في الإحباط والنجاح، في السأم والإقبال، ويبدو أننا لاشعورياً نظنّ أن الحب وحده قادر على تبديدها. ومن ناحية أخرى، تعمل الهورمونات والتاريخ العاطفي عملها فينا بحيث تجذبنا حيناً وتنفرنا أحياناً، وفي بعض الأزمنة تصرّ الهورمونات على التعبير عن متنفّسها، حتى بمعزل عن الانجذاب أو النفور.

ولأمر لا ندريه تختلط الأمور بحيث نشعر في الأوقات النادرة أن الاكتفاء الهورموني يجلب معه تبديداً للوحدة، فنطير فرحاً جسدياً ونفسياً، لنعود دائماً إلى اكتشاف الانفصال الذي لا مناص منه، فنقع من قمة الطيران إلى أرض الواقع الصلبة والموجعة والباردة.

ومما لاحظته من علاقات الحب أو الارتباط هو أن أكثر هذه العلاقات ثباتاً تكون بين أناس ترابيين واقعيين، يحملون الصيغ الاجتماعية محمل الجد، كل الجدّ، فيعتبرون ثنائيتهم ضمنها تبديداً حقيقياً للوحدة. وأغلب ظني أن هؤلاء هم ممن تغلبهم الهورمونات ويغلب فيهم ما يمليه

نجلاء حمادة

المجتمع. إنهم فاقدو الإحساس الواضح بوحدانيتهم، الذين تتبدد وحدتهم بمقادير من «الحب» ومقادير من الانتماء الاجتماعي الراسخ. قد يكون هؤلاء الوحيدون المرشّحين للتغلب على الوحدة الوجودية. وهم في الغالب ينتصرون عليها بعد أزمنة من الحب وليس في أوله. هؤلاء المحظوظون، قد ينطبق عليهم قول المسيح إن من يضيع نفسه يجدها، إذ يصلون إلى تبديد الوحدة لأنهم في الأساس لا يعونها ولا يعملون على الخلاص منها. قد تبدأ علاقتهم هورمونية ممزوجة بالرغبة بالصحبة وفي إرضاء توقعات المجتمع وتنتهي إلى صيغة هي أكثر الصيغ الممكنة تبديداً للوحدة.

ولو صحت ملاحظتي هذه، لصح معها كون الأذكياء والواعين لأحوال نفوسهم وللوضع الوجودي الإنساني هم الأقل حظاً في الحصول على الحب المكتفي والثابت. فهم مرشحون دائماً لطلب المستحيل ثم للحزن عندما يكتشفون المرة تلو المرة هذه الاستحالة . وفي الغالب يتجه هؤلاء نحو المزاج الكلبي CYNISM وتسير بهم الحياة، خاصة بعد تذاوي الهورمونات، نحو الإغراق في الوحدة.

وعندما يذهب العمر بالهورمونات يندر الحب. لكنه عندما يحدث يكون حباً أكثر حظاً في تبديد الوحدة، أو في تبديد ما يمكن تبديده منها: إذ إن الحب حينها لا يكون مأسوراً بإلحاح الهورمونات وتسرّعها، وهو في الوقت نفسه لا يكون مصرّاً على تبديد كامل للوحدة، لوعي صاحبه باستحالة هذا التبديد.

أما الحالات التي تكون محكومة كليّة بالهورمونات، والتي لا أدّعي معرفتها إلا لماماً، فقد يعرفها الرجال أكثر من النساء. وقد تقع فريستها النساء اللواتي تربين على نظرة دونية أو شيئية إلى أنفسهن. وهي حالات من «الحب» اليائس من تبديد الوحدة، وبالتالي من الحب الذي لا يطير ولا يهبط، وفي الغالب لا نطلق على هذا النوع اسم «الحب». أما لماذا يكثر هذا بين الرجال عما هو عليه بين النساء، فقد يكون السبب هو ما يبنيه المجتمع من نظرة دونية للنساء وفوقية للرجال، فلا يعود لائقاً بالرجل أن يعتبر المرأة قادرة على تبديد وحدته، بينما تشجّع المرأة على الرغبة في ثنائية مع رجل يحمل في نظرها القدرة والمرجعية وبعض الألوهة التي نتوق جميعاً لتبديد وحدتنا بالتوحد معها.

دوائر الحب العقارية

الحب فضاء تحاول دوائر المجتمع العقارية أن تفنده في دفاتر متجانسة تكون الحدود فيها مرسومة بدقة متناهية ووحشية صارمة. فهي تصطاد الحب لتحشره في خانات صغيرة تدجن وتقولب. وهذه الدوائر العقارية لا تكتفي بأن تحدد أي العقارات لك وأيها لجارك، بل تسعى لأن تعين لك طريقة تعاطيك ضمن العقار: أي، متى تأكل ومتى تنام وما مواعيد استحمامك وأوقات عملك ضمن العقار الذي، لو قبلت معها أنه ليس بفضاء ولا ما يفرحون أو يحلقون، لا تعود تدري إن أنت تملكه أو هو يملكك.

والمجتمع بدوائره وأنماطه يسعى أيضاً إلى إقناعك بأسباب سعادتك واكتفائك بعقارك وأسباب بؤسك فيه. فلو كنت فرحاً لأن عقارك يسمح لك أن تنفذ من نوافذه وأبوابه لتستنشق الهواء، يقنعك بأن العقار المغلق اللاصق بأنفاسك، الرافض لأشعة الشمس، هو الأفضل بما لا يقاس. ولو كنت مكتفياً وراضياً بطفلة صغيرة تأتيك «على البيعة»، بعد أشهر الانتظار، قالوا لك إنه عليك أن تشعر بالظلامة لأنها ليست طفلاً.

يحاول المجتمع بدفاتر قيده إجبارك على عدم المزمزة والتذوق، فارضاً عليك إما عقد ولائم التخمة، الموصلة إلى صدّ النفس، وإما الصيام حتى التلاشي والدوخان. فمرحلة البين بين تخيفه وتربكه، وإن كانت في رأيك أجمل

نجلاء حماده

المراحل وألطفها. فالمجتمع يعتاش ويتكاثر بفضل تعاطيك مع عقارك كما يريد، بحيث يستنفذك ويستنفذه، وهو يخاف إن داريتما وحفظتما بعضكما البعض من أن تبخلا عليه، فلا يعود يستفيد إذ يستعطيكما تباعاً حتى يأخذ كليكما كليّة. فكلاكما في نظر المجتمع عقار يصرّ على امتلاكه وامتلاك آفاقه وتحركاته وثمراته.

ولعلّ الهروب من دوائر الحب العقارية لا يتمّ إلا بواسطة الكلمة. والشعر، أو النثر الشعري، هو أكثرها تفلّتاً. فمثلاً يمكنك، نظرياً أو شعورياً، التفلت في اللحظة الحرجة بواسطة الكلمة، وإرجاء توقيع عقد الملكية إلى أجل لا يسمى ولا يأتي أبداً:

زفاف مؤجّل

أهديتني ثوب زفاف أسود
محشواً بما يعود إلى التراب
وإكليل عرق وكآبة.
وبحركة تنازلية محسوبة دعوتني:
«لنجلس إلى المائدة،
بقايا عشاء البارحة».
قلت في سرّي:
« لن أخبره من أنا
وسيعرفني.»
وذهبتُ بعيداً وأوغلت.

وفي حالة الحب يجزع واحدنا من أي رتابة أو تكرار:

سأم

نظرت من النافذة
إلى جارنا الذي يلاعب أباه بطاولة الزهر
كل يوم أحد، طوال النهار.
ضعفت الصرامة من وجهي،
وهطلت دموعي.

والحب يلذّ له التغيير، حتى التغيير المؤذن بنهاية الحب نفسه، فيتغزّل بدهشة وفضول بجسد الحبيب الذي سكن فيه العشق ولم يعد يسكنه:

الجسد المغلق

وجه مرتاح امّحى منه التوتّر،
عينان باردتان تحملان ذكرى الشغف،
يدان ساكنتان عليهما أثر اللهفة المرتبكة.
القامة تقصر،
الثقل يستسلم لجاذبية الأرض،
الكيان يجمد ويتوقّف عن الصيرورة.
جسد لا يقول حتى: «ماذا بعد؟»!

وعندما ترى أن صاحبك من عالم لا يلائم الحبّ أو يعرفه، وأنه لا يلحظ الفرق بين موقع القلب ونبض المعدة، تعلم أنه عميل لدى الدوائر العقارية، إنسان من زجاج:

الإنسان الزجاجي

لا يستوقفك
ولا يحجب عنك من يقف خلفه:
هو نافذة يسطع من خلالها الضوء، أو تُظلِم عند هجوع الليل.

قد تتلذّذ بصلبه قربك
متشدّقاً بالحركة الدافقة منك،
على مرأى من جموده الذليل.
وقد تضيق ذرعاً بصنميّته،
فتلقي عليه حصوة تهشمه.

ويبقى الحب فضاء في عالم الأحلام:

حلم

عندما نلتقي على قمة العالم

ويتراجعون من حولنا،
ونطاول العناصر
سأقول له الحقيقة.

عندما يغدو المحيط تحتنا بلّوراً مورقاً،
ونخطو خارج دائرة الزمن،
ونتأملهم من الخارج
سيفهم ما أقول.

وعندما تشعّ الشمس علينا
وتتواطأ الأشجار فتظلّلنا
ويهلّلون جميعاً لنا
سيغدو كلامنا بلا حنجرة.

ورغم ارتفاع وتيرة الأحلام وصغر الواقع تحدث قصص الحبّ.

قصة حب ١

هلّلوا لانبلاج الرؤيا:
رأيت من خلقنا
ومن وُجدنا من أجله.

كيف أصف بهاءه؟
ذلك الجبان المنزوي وغير المبالي.
ذلك الرائع السكران،
الابن الشرعي الوحيد لهذا العالم!

رآني خلسة بعيون نصف مغلقة
فهتفت: «دخلت ذاكرة الزمن.»

نقبت عنه في الصحو والغفلة
ومجّدت بعده واستعلاءه.

من جلاله تعلّمت أن أحكم عالمي بلا مستشارين.
من إغرائه فككت الحزام الضّاغط وانطلقت،
وعندما كبا برأسه أقنعت نفسي أنه يناديني.

بعد الخطفة علق الحنين في حلقي،
نزلتُ من عربة الزمن وانتظرت.
مرّت بي قوافل كثيرة، نادتني ولم أرها
وأصابني العطش والدّوار في صحراء خالية منه.
تتالت الرؤى
ونزلت عليّ صور كثيرة كانت تدقّها الشمس في رأسي.

قصة حب ٢

أحدنا البحر والثاني كوب من الماء.
ينأى بالبحر حنانه مخافة أن يبتلع الكوب،
والكوب لا يقترب من البحر هلعاً من الاضمحلال فيه،
ويتعايشان.

قصة حب ٣: كيف ابتُلع البحر

البحر بأمواجه المتعدّدة،
بعضها عميق المدى
بعضها طاف ويافع،
تتثاقل لتنقضّ
تنحسر لتندفع
تحتار ثم تجزم،

وفي كلّ هذا لا يرى إلاّ نفسه.

إلى جانب البحر تقع بركة صغيرة
شبه راكدة،
قعرها قريب
ومياهها الصافية فرحة بقليلها،
فلا تفتأ تفترّ عن حصى لؤلؤية
بابتسامات تتّسع.

وسع البحر الكثير
وضاق بالبركة القانعة:
« لا موج لها ولا حول،
فلم تربض قرب البحر وكأنها صنو له وندّ؟!»

كان البحر، بين فينة وأخرى،
يلمح البركة بنظرة جانبية.
لم يجنّد لها ذبذبة أو لفتة،
لكنه ضاق بها.

تدافعت أمواجه باضطراب أضاع الإيقاع،
كادت تعمّه فوضى الغضب،
شعر بالمهانة لموقعه وجيرته،
لكون الشمس تراه قابعاً إلى جانب البركة.
بدت له صورته مهينة
وودّ لو يندثر من العيون.

حار في أمره:
كيف يفقد اتّزانه بسبب بركة تافهة؟
لم لا يبتلعها؟

شعر بالغثيان، فهو يريد احتواء أشياء كثيرة،
لكن البركة المبتسمة ليست من بينها.
حاول أن ينساها، لكن اكتفاءها وفرحها حالا دون ذلك.
كان أحياناً يتساءل: «بماذا تكتفي وبماذا تفرح؟»

بعد الحيرة
علم أن البركة فرحة بجيرته ومكتفية بقربها منه.
عندها اندفع يغور ويضمحل في باطن الأرض.
اختفى أثره،
وامّحت صولاته وجولاته.
ظهر في مكانه قعر رملي داكن، كجوف حيوان مريض.

بقيت البركة،
ثم عادت تفترّ عن حصى لؤلؤيّة تلمع في أشعة الشمس.

قصة حب ٤

رائحة الموت تنبعث من قطار هامس
يضيع في دقات قلبي.
والحصى الكثيرة
تغلّفها عجينة دافئة،
فأنسى الحصى
وتغيب عيناي في البحر،
ومع وجوهي الكثيرة المبتسمة
أبقى مكفهرّة وحدي.

أحياناً تطيل الانتظار لتحصل على ما تريد:

انتظار

وأنا أسوّي أمري للخروج إليهم،

بينما الجميع وقوفاً ينتظرون،
تسلّل الكبَر إلى وجهي.

كنت في حيرة: «أأحملهم أم يحملوني؟»
والآن لا أقدر على حملهم
ولا هم يقبلون بحَملي.

ليتني بكرت قليلاً.

وأحياناً تسيء الاختيار:

العكاز

يستعين بعكّاز من القشّ،
كلّما ألقى به ليستند إليه،
وجد نفسه مضطراً إلى تقويم العكّاز وحمله.

يبتلي بعاشق دائم الإغفاء،
كلما استفاق، تحرّكت شهيّته للأكل المتعدّد النكهات.
يعاقر العشق بين إغفاءة وأخرى، بين لقمة ولقمة.

مورّد الوجه
طافح العينين،
يمضغ كلمات الشوق براحة،
ويمني النفس بملامسات لا تصل عبر جلده السّميك.

أحياناً يحزنك الأمر ويولّد لديك رغبة في الفناء:

عفن أزرق ورداء أخضر

عندما يحيط العفن الأزرق بالقلب،
ترتدي ثوباً خريفيّ الاخضرار

وتغوص في الرمال جسداً وروحاً.
تعانق الظلمة بفرح الطفل في مخبئه.
تغمض العينان في الرّمل وترتاح:
«هنا يُحتضن الوجه ولا يُصفع.»

وأحياناً تغلب عليك السخرية. فإن صادفت إنساناً منتظماً، قابعاً في خانة من خانات الدفاتر العقارية، تتظاهر أنك تغبطه وتُعجب به:

هنيئاً لك الانخراط والقبول

ما أجمل أن يدير الإنسان حجر الطاحون
أن يشدّ حيله ويدور دائماً في نفس الدائرة.
من يدري؟ قد يوجد قمح تحت الحجر
فيغدو طحيناً.
وعلى كلّ حال،
هناك دائماً ساعات الضحك المجلجل،
حيث نحقّق أنفسنا وما نصبو إليه.

لعلّ أفشل العلاقات هي علاقات الحب. فالصداقة قلّما تقيّد أو تجبر الأصدقاء، وحتى الحب العائلي يترك فسحة ومدى بين أفراده. أما الحبّ الروحي أو الفكري، فلعلّه الأكثر انطلاقاً إذ يسلّم الزّمام كليّة فيه للمحب، لمزاجه ووتيرته، فيؤلّف المحبوب على ذوقه ووفق ما يلزمه. لكن كون الحب بين الرجل والمرأة مصدراً نفعياً لمجتمع تحكمه المصلحة يحمل المجتمع على الدوس على الأفراد وعلى حبهم المتحوّل، الدائم التأجج والخبو، ليجعل منهم ومنه كياناً جامداً. بل إن المجتمع يوجد صراعاً بين طرفي هذا الحب ويسنّ تمايزاً وتمييزاً يأسران كلاً منهما ويحدّان من انطلاقهما ومن حلاوة الرفقة بينهما.

قد تكون ممارسات المجتمع إزاء المحبين صادرة عن حكمة ما أو من أجل مصلحة تتخطّى الأفراد، لكنهما حكمة ومصلحة تخلّفان الكثير من الحزن والألم، وتحولان دون الكثير من الفرح والسعادة.

لماذا وجدت صعوبة في الكتابة عن تجربتي في الحب؟؟

د. فهمية شرف الدين

أن تعيش الحب، أسهل بكثير من أن تكتب عنه. هذا ما انتهت إليه تجربتي الراهنة للكتابة عن الحب.

أغرتني الكتابة عن الحب، فقررت أن أكتب، فالتفكير في الحب متعة في حد ذاتها، فكيف إذن الكتابة؟

لكن «الحب» هذه الكلمة اللطيفة على السمع القريبة من القلب والجسد، أصبحت فجأة عصية على الوصف.....

لا أبالغ إذا قلت إنني حاولت مرات ومرات، أغلقت على نفسي نوافذها وذهبت في فلك الأيام، أستعيد بعضاً من تجارب العمر وأتلذذ بالتذكر، ولم يكن ذلك صعباً في بادئ الأمر، فالذاكرة لا تزال ندية تعتمر فيها الإشارات التي تستحضر الزمن الوردي لتجارب الحب وما خلفه من النفس والجسد.

والراهن من العمر يحتمل المجازفة...... فلما القلق إذن؟ لكن الصعوبة موجودة في مكان آخر يتعدى المشاعر والأحاسيس.... ويتجاوز حدود الوعي والرغبة والإرادة.

إنها هناك في الالتقاء الحاد بين الخاص والعام الذي تتشكل منه هويتنا الأنثوية ؛ والهوية الأنثوية تتجاوز الطبيعة لتسكن المجتمع والتاريخ وتتحمل وزريهما معاً...

..... ولم تسعفني تجربتي الكتابية ولا اللغة

للتعبير عن الخاص الحميم الذي يمثله الحب تلك اللغة التي تتيح للأدباء والشعراء نقل الصور الجميلة، المحملة بالتفاصيل، العابقة بالمشاعر.

تمنيت مثلاً لو أستطيع أن أصف النظرة الأولى لامرأة تجاوزت الأربعين، يحمر وجهها خجلاً من غزل لم يفاجئها، لكنه أدخلها في النفق الممنوع للحب والرغبة.....

تمنيت لو أستطيع التنقل بحرية بين القلب والجسد لأكتب عن اللقاءات والانتظارات وقلق الأيام التي تصبح فجأة وبسرعة البرق شيئاً من الماضي.

وكم كانت رغبتي شديدة في وصف ما يحدثه الحب في النفس وما يخلفه من آثار على الجسد والعقل معاً.

أدرك الآن أن الكتابة عن الحب ممتنعة وممنوعة في آن، هي ممتنعة على البوح باسم ذلك الاعتقاد الذي يجعل من الحب طفلاً برياً يعشق الظل ويتوسد الأسرار وينتظم في مراتبها.

وهي ممنوعة باسم تلك الاكراهات التي حالت، حتى الآن، بين المرأة وروحها وبينها وبين جسدها. هو ممنوع باسم «العفة» التي اشتبكت مع أعصاب النساء وغرائزهن حتى ان استئصالها ووضعها تحت بؤرة الضوء يُعدّ عملاً يتطلب شجاعة نادرة كما تقول فرجينا وولف.

ومع ذلك فتجربة الكتابة عن الحب، تظل تراودنا نحن النساء فمن منا لم تكن بطلة لقصة حب أو قصتين أو ربما أكثر، كنا فيها ملائكة ضلت طريقها فتاهت عن سمائها .

من منا لم تنقل لرفيقتها بعضاً من تلك الهنيهات التي رافقت زمان الحب وأوهامه، وبعد ذلك أدخلت ذاتها في الصمت.

من منا لم تتناول قلمها وتسجل على الورق بعضاً من خواطر، وقليل من كلام يقول ولا يقال....

لكنه كلام يبنى للمجهول، يحيل إلى الغائب، فالمرأة لم تعتل خشبة المسرح بعد.

وبانتظار أن يصبح المجهول معلوماً ومتاحاً للفعل والقول، أعتقد جازمة أن العيش في الحب أسهل من الكلام عنه، فكيف إذن بالكتابة!

عن الحب

لا يمكنني التحدّث عن الحب، إلا بتذكّر ذلك اليوم القائظ من شهر تموز. حين صعدت إلى الباخرة التي ستنقلني من اللاذقية إلى أثينا في رحلة بحرية تستغرق ليلتين. كنتُ في العشرين، تحف بي أحلام الحب الرومانسي الوردية، وكنتُ أذرف الدموع تأثّراً بالأغاني الطافحة بآلام الحب. كنتُ أنتظر آلام الحب أكثر مما أنتظر فرحه، وكان رجل الحلم يتبدّل من وقت لآخر متقمصاً شخصيّة نجوم السينما في ذلك الوقت، خاصة ريتشارد جير بطل فيلم (قصة حب).

كانت الباخرة تغص بالركاب، وحين جلستُ في المطعم بجوار عجوزين لتناول طعام العشاء، وفرقة يونانية تعزف موسيقى تفجّر الأحاسيس في ينابيعها العميقة في الروح، تنبّهتُ فجأة لعينين ساحرتين عسليّتين تراقبانني باهتمام، أذكر كيف انخلع قلبي من مكانه، كأنه هوى في بئر عميقة، كان شاباً –اعتقدتُ أنه يوناني– سحرني بجاذبيته، تشابكت نظراتنا بوَله غامض، وعجزنا عن فك اشتباكها، أحسستُ كيف سخنت يداي وصارتا كرغيفين طازجين، وكيف تدفّق الدم في وجنتيّ، وخلال دقائق ما عدتُ أعي شيئاً سوى حضور ذلك الشاب الغريب الطاغي. نمتُ تلك الليلة وأنا أشعر أن حمى أصابتني عرفتُ فيما بعد أن هذه الحالة تُسمى صعقة الحب، تمنيّتُ لو تتوه الباخرة في البحر، ولا تصل إلى شاطئ الأمان الممل.

هيفاء بيطار

في اليوم التالي، لم تعد نظراتنا مجرد انجذاب، بل صارت حباً صارخاً، ولهاً لا يمكن تفسيره. غريب أننا لم نفكّر بالتحدّث إلى بعضنا. ربما فكّرنا أننا لا نتحدث اللغة ذاتها. ترى ألا يمكن للأيدي أن تخلق لغتها. في فجر اليوم الثالث، وصلت الباخرة إلى الشاطئ اليوناني، وبدأ حزن شفيف يرتشح من وجهينا –الغريب وأنا– كنا نقف متجاورين على سطح الباخرة، نمسك الحبل الثخين، فجأة اقترب مني وسألني بالإنكليزية: من أين أنتِ؟

قلتُ له وأنا أتذوّق صوته: من سوريا.

فقال بحماسة: أنا من العراق، واسمي مصطفى.

رشحت عيوننا بالدموع، وقد أدركنا بلاهتنا طوال الرحلة.

حين أتذكّر تلك الحادثة، يدهشني الانجذاب الهائل والغامض بيني وبين الغريب. ما الذي يُكهرب رجلاً إلى امرأة؟ ما سرّ تلك الشرارة الإلهية التي تندلع فجأة في الروح، كلهب العليقة...؟ ما سرّ تلك الصعقة التي تُصيب الإنسان فتنقله من جاذبية إلى جاذبية، كما لو أنه إلكتروناً يغادر مداره إلى مدار آخر!

كم تمنيّتُ فيما بعد لو تحصل معي حالة مشابهة. لكن للأسف بدأ عقلي ينمو على حساب قلبي. وكم كان يؤلمني أن القلب يريد أن يجرّني باتجاه، والعقل بالاتجاه المعاكس. كنتُ مُلقّنة بمبادئ العيش وبالتالي الحب. ومن قلب تمرد مراهقتي كان يكمن رضوخي، كان عليّ أن أتطابق تماماً مع توقّعات الآخرين، هم الذين يحبونني ويعرفون مصلحتي، هم الذين اشترطوا علي أن أحب شاباً مسيحياً ويستحسن أن يكون من طائفتي روم أرثوذكس، وذا سوية اجتماعية معينة. كنتُ أحارب بقوة وشراسة كل بذرة حب يمكن أن تنمو تجاه شاب من غير ديني. لدرجة تمنيّت لو يخترع العِلم لقاحاً يقيني حب شاب مسلم. تلك الأفكار الضاغطة القمعية المسيطرة عليّ جعلتني أفقد الكثير من حيوية العفوية الأساسية لحب حرّ ومُعافى.

ظلّ الحب في حياتي مقموعاً كالحرية، حتى أدركت أن الحب والحرية وجهان لعملة واحدة. الحب في حياتي كان طائراً في قفص، لا يستطيع أن يحلّق إلا ضمن قضبان. لا يمكنه أن يلامس الغيم، وأن ينتقل من غصن إلى غصن، وكأن تغريده كلّه شجناً.

لم أكن وقتها أملك النضج الكافي ولا الثقافة النفسية لأفهم نسيج حياتنا، النسيج الذي يحكمه النظام الأبوي، والعقلية الضاغطة التي يجب أن نعيش ضمنها.

كانت السمعة كسوط مسلّط على رقبتي، يجب أن تظلّ سمعتي كالمسك والفل، ولا يرتبط اسمي باسم شاب، الحب يجب أن يكون له هدف نبيل وهو الزواج، وإن فشل الحب، فالفتاة تدفع الثمن –سوء السمعة أما الشاب فيكسب خبرة جنسيّة–.

لم أستطع أن أخلق نفسي، وأفك نفسي قطعة قطعة وأعيد تركيبها إلا بعد سنوات طويلة حين أطلقت صرخة روحي وكتبتُ (امرأة من طابقين). تلك الرواية التي طرحت فيها كل المواضيع الإشكالية (حب فتاة مسيحية لشاب مسلم) وكيفية زرع العقلية الدينية في عقول الشباب.

بكل أسف أقول إن طعم الحب كان ممزوجاً دوماً بالمرارة، بسبب ذلك الشرخ الكبير بين المرأة والرجل في مجتمعنا، بسبب العقلية الاجتماعية المجحفة بحق المرأة. فالمرأة المتحررة هنا، والتي تشرّع نفسها للحب والحياة، تُلصق بها أبشع الصفات، حتى أن كثيراً من الناس –وخاصة المثقفين– ينظرون إليها كعاهرة! وهناك الكثير من الرجال المثقفين يلذ لهم التحدث عن التجارب العاطفية والجنسية للنساء المتحررات، خاصة البارزات في مهنهن! يتحدثون عنهن بقلة احترام وسخرية ولا يرضى أي منهم اتخاذ إحداهن زوجة له!

الرجل العربي بشكل عام يريد زوجة للخدمة، مطيعة، تدور في فلكه. وامرأة عشيقة يمارس معها ملذات الحب، ويغتني بها بالحوار الدافئ العميق.

لكن ما يسعدني ويشعرني بالغبطة أن الحب كامن دوماً في النفس، وأن الإنسان يتغير لكن الحب يبقى. وأن روعة الحب أنه لا يخلق مناعة، فنحن جاهزون دوماً لهذا الشعور العذب، الجميل، الذي يجمّل الحياة ويجعل لها معنى. الحب كامن في الروح كبذرة غافية. إنه يجعلنا قادرين على ترميم أحلامنا مهما تكرر انكسارها.

الحب هو نكهة الأشياء... هو العينان الجديدتان اللتان نرى بهما العالم. وهو انتظارنا الأبدي.

دعـك من الهمـوم وقبليني

كانت تتقصد النوم في بيت جدتها، بحجة مساعدتها، فتتنقل بين الغرف، ثم تنسحب للقائي ليلاً قرب البوابة البعيدة عن منزل أهلها. ومنذ الجلسة التي أعلنا فيها حبنا قرب النهر، كانت تلك الطريقة الوحيدة للقاءاتنا في صحراء القرية المقفرة والمغلقة على الأصدقاء والتابوات الكثيرة. لقاءنا الأول قرب النهر، كان استعارة أكيدة من الصور الرومانسية الآفلة: خرير المياه، أيدينا المتشابكة، الفضاء الأزرق المفتوح، الأصدقاء الذين يتناسون وجودنا ونتناسى وجودهم...

قرب البوابة نجلس متباعدين بادئ الأمر، ثم يروح أحدنا يقترب من الآخر، بعد أن تهدأ الأفكار التي حضّرناها لهذا الجلوس، فتشتبك أيدينا على استيحاء وتتقارب كتفانا ونبدأ بالكلام الطالع من اضطرابنا وخجلنا والدائر حول ما كنا نفعله قبل علاقتنا، وما سنفعله معاً أثناء علاقتنا التي اعتقدنا أنها ستبقى أبد الدّهر.

كانت تلك الفتاة معلمتي الأولى على الحب الطفولي وممنوعاته وعلى ألاعيبه التي إذا لم تراعَ يفشل في مهده. وبما أن مثل هذه العلاقات في القرى تطول، فإن علاقتنا طالت بينما كان الزهو هدفها والحب فيها مجالاً لمتعة عارمة لا تقترب من الجسد، بل تبقيه مقنّعاً بالعذرية المتخمة بالعواطف.

على الحصيرة قرب النهر قالت إنني جميل وأنها ترى في عينيّ أسراراً تريد معرفتها، ولم

فيديل سبيتي

أكن أعلم حينها أن الفتيات يقرأن في العيون وأن في عينيّ أسراراً. لم أكن أعرف أن للحب مداخل تبدأ من اللاشيء، أو من توصيفات لا معنى لها. قلت لها إنها تراني جميلاً لأن عينيها جميلتان. اخترت هذا الرد لأني لم أجد أفضل منه. بدأ قلبانا يخفقان بشدة فمددت يدي إلى ركبتها العارية ورحت أرتجف كأن تياراً كهربائياً يمر في ركبتها. أما هي فاحمرت خجلاً وراحت تحدق في السماء، وتحدثني عن أخواتها وأهلها...

أنهينا علاقتنا بسبب انتقالي إلى بيروت لألتحق بالجامعة. وفي بيروت لم أنسَ علاقة القرية بسهولة، لأنني لم أندمج في المدينة والحياة الجامعية بسرعة. كنت كلما تعسّر اندماجي، تلح عليّ ذكرى تلك العلاقة القروية الهادئة، فأروح أدوّن يومياتي متوجهاً إلى فتاتي، شاكياً لها الألم الذي يعتصرني نتيجة فراقها. أخبرتها في يومياتي أن مشكلة الاندماج وضرورة فراقها متشابهتان، فكلاهما يدفعانني إلى كتابة يومياتي وإلى الانزواء في البيت دون رغبة مني في الأكل والدرس والخروج. ومما كتبته لها أيضاً : «إنني تائه على إسفلت المدينة، والرصيف المواجه يبعد آلاف الكيلومترات، وأعضائي تقوم بمهامها متحجرة... القمر في المدينة حزين، وما يزيد من حزنه تشابكه مع الهوائيات المنتشرة على سطوح البيوت المكدسة فوق بعضها، والقمر الذي كان ينير عشقنا يعيش في هواء نظيف... أشتاق إليك.» وكنت إذا بكيت أدع الدموع تتساقط على الأوراق، فيسيل الحبر كأنه يبكي. وإذا ما كتبت على ضوء الشموع، أتعمّد إغراق ورقتي بالشمع الذائب، لأترك لنفسي شواهد على حزني الذي أعيشه مغتبطاً، ولكني سرعان ما رحت أقلل من كتابة تلك اليوميات، بعدما تعرفت إلى فتاة في الجامعة.

كانت ترمقني منذ أسبوع، وأعطتني وردة غاردينيا وعرّفتني بنفسها، وفعلتُ مثلها، ثم تبادلنا أطراف الحديث حول الدرس والطلاب وكافيتيريا الجامعة والتدخين وغيرها من أحاديث اللقاء الأول. كان واضحاً أن تلك الفتاة تكبرني سناً. فجسدها الناضج يتقدمه ثديان كبيران وبسمة واثقة مجرّبة، وكلام كثير لا ينضب. سألتني إن كنت أعيش وحدي فأجبتها : وحدي، فاقترحت أن تزورني في يوم قريب، من دون أن تخطر لي فكرة ممارسة الجنس، كما فكرت هي، وأخبرتني في ما بعد. كل ما كان يحمّسني لتلك الزيارة هو أن أستقبل ضيفة في بيتي الذي لم يدخله زائر منذ سكنته. حفزني فكرها السياسي القريب من فكري على أحاديث كثيرة، كذلك حبها لشعري الذي أكتبه وأنا أجلس قربها. ثم راح كل منا يخبر الآخر عن علاقاته السابقة. كانت

كلماتي مقتضبة نظراً لتجربتي المتواضعة، بينما كانت تجاربها مليئة بالإثارة، فأخذت معظم الوقت أستمع إليها... ومارسنا الجنس في لقائنا الأول في بيتي. وكانت تلك المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع فتاة بالغة. علمتني تلك الفتاة أن الحب يبقى خيالياً إذا لم يبلل بالجسد وأن المدينة تنشئ حباً غير الذي تنشئه القرية. حب المدينة كالمدينة مليء بالضجيج ومبادر ويقتله الروتين، وحب القرية يعيش في الروتين، وسرعان ما صرت أكتب شعراً للمرأة بعدما كانت غائبة عن شعري.

افتناني الجديد بجسد المرأة فتح لي عوالم كانت موصدة فيما مضى. كانت فتاة الجامعة مفتاح الباب الموصود، وقاموس الجسد المبهم. كنا نترك الجامعة يومياً إلى مسبح قريب، نلبس المايوهات ونحتسي البيرة كراشدين، ونجلس على كرسي واحد، ونتشمس تحت شمس حرارتها خفيفة، ثم نأوي إلى بيتي، حيث نحضر غذاءنا وننام على السرير.

اكتشفت حينها أن الحب يصنعه اللقاء الدائم، والأبواب المفتوحة، وأن البعد يقتله، البعد الذي يتحول إلى جفاء، فالجفاء قاتل الحب واللقاء الدائم ينعشه.

في بداية العام الدراسي الثاني، بدّلت جامعتي وانتقلت إلى كلية الحقوق فتعرفت إلى لانا، الفتاة الطويلة والواثقة، التي تعيش وحدها، وتعمل بعد الدوام الجامعي. كانت صلتي بفتاة الجامعة الأولى ما زالت قائمة ولكن الجفاء بدأ يداخلها وأخذ ينخرها كالسوس.

بدأت باستمالة لانا، مستعملاً حب القرية وحب السنة الجامعية الأولى. رحت أستميلها برومانسية، تنحو نحو الجسد. لكن لانا كانت فتاة محافظة وتقليدية، تعمل بكد وتدرس بجدية وتتبجح بعصاميتها، ولا تفهم سوى أن الحب طريق إلى الزواج... جهدت في إقناعها أن الزواج مقبرة الفتاة والحب، وأن منح الجسد لا يحتاج إلى أوراق ثبوتية وشهود وشرعية من أحد... الجسد كالزهرة التي تتفتح ثم تموت لتصير تذكاراً.

لم تقتنع في البداية، لكنها سرعان ما أخبرتني كيف كانت تذوب عندما يلمسها حبيبها الأول، وكم كانت تتمنى لو يفتح قميصها زراً زراً. وأخبرتني كم تعذّبت لفراقه حين انتقلت إلى بيروت وهاجر هو إلى دولة خليجية، ليحقق حلمه بالثراء. تفتحت لانا كقفير نحل عن أسرار علاقاتها السابقة. تمنّعها في البداية زادني تعلقاً بها، وقلة لقاءاتنا بسبب يومها المشغول، دفعني إلى الإصرار على لقائها، فصرت متطلباً أتصل بها أربع مرات يومياً، وأقول لها إني أحتاج إليها، وإني لا أتحمل بعدها.

كنت أشعر بذلك حقاً، وتحولت حاجتي إليها إلى حالة من التحرّق والشك والاستفزاز. علمت حينها أن للحب خطة ثالثة : الصد والطلب، الشك والطمأنينة، الجفاء والحنان، التحرّق وإخفاؤه أو عدم القدرة على التعبير عنه.

كنت أنتظرها على الشرفة، حاملاً كأساً من النبيذ. ففي تلك الفترة رحت أُكثر من شرب الكحول. وأنتظرها وأكتب لها أشعاراً، دون أن أطلعها عليها، لأنني حينما كنت ألتقيها أتحول إلى مستنكر، إلى عاشق من بعد، ويحلم لو أن له ألف فم أو خطه سحرية ليدخل روحها في روحه. لذلك قلت لها إنني أريد أن آكلها. كانت تضحك لتلك الفكرة ضحكة طفولية، كأنها تستعرض استنكاري، وتسخر من تبجحي بحبها. كنت أنتظرها صارفاً كثيراً من النبيذ وعشرات الوحدات الهاتفية. وحين تأتي أجلس بقربها وأسألها بحنو إذا ما كانت جائعة، فتقول: «لا أريد أن آكل، أريدك إلى جانبي فقط.» تلك الجملة تباغتني كموجة بعد زلزال، لكني أُبقي علامات الحزن على وجهي، مكابداً ألم فراقها قبل أن يحدث. أضمها إلي كأنني خائف من أن تختفي. أسألها إن كانت تعبة، فترد بهدوء جدي: «لا لست كذلك، أريدك إلى جانبي فقط، ووجودك قربي يزيل عني كل تعب العالم.»

كانت تلك الجملة تزيدني أسى، فأقول لها أحبك ثم أضمها كطفل تائه. كتبت لها قصائد بالجملة، وكان حلم أكلها يراودني أثناء نومي، وراح يزداد عدد اتصالاتي بها، ولكني بقيت حزيناً خائفاً من فراق ما كان ليأتي لولا خوفي منه.

انتهت علاقتنا بسبب جفائي الذي صنعته من حزني. في جملتها الأخيرة، قالت لي إنها لا تبحث عن حبيب يمطرها بالقصائد وينكّد عيشها. تريد شخصاً يدعوها إلى فنجان قهوة خارج غرفة النوم التي تحولت إلى سجن. قالت تلك الجملة ثم ضربت الباب خلفها.

بعد علاقتي بهيفاء، قررت أن لا حب بعد الآن، بل سألجأ إلى «المصاحبة». كلمة مصاحبة تلك جديدة نسبياً بحسب استعمالها، وهي تعني علاقة بين شاب وفتاة قائمة على الحب الجسدي، وليس لها هدف. فكرت أن في مثل هذه العلاقات مساومات وبلا قيود. تقول لفتاتك إنك تحبها كما هي ولن تحاول تغييرها، وهي تلتزم الأمر نفسه. علاقة المصاحبة أقرب إلى التعاقد منها إلى علاقة الحب.

في تلك الفترة الجامعية، كنت قد أقمت صلات مع الشباب اليساريين في الجامعات والذين يتخذون من شارع الحمراء مكاناً لاجتماعهم ولهوهم. كانت فترة مليئة بالأحلام الثورية وبالشعراء والرسامين والكتاب الذين كنا نتبع خطاهم. كان

نيرودا شاعرنا العظيم وغسان كنفاني ومهدي عامل وزياد الرحباني وغيرهم مثالاتنا العليا.

تشاركت ولارا في شقة واحدة، في ما يشبه المساكنة. فهي تشبهني وتشاركني رأيي في الكثير من الأمور. ولارا فتاة جميلة ومثقفة، تضحك كثيراً وبصوت عال، رغم أن وجهها يحافظ على حزن قديم يزيده بروزاً الكحل الكثيف الذي تضعه حول عينيها. كانت تشبهني بتهورها وخوفها من الاكتئاب الناتج عن الملل. كانت علاقتنا مرتبطة بالجماعة في بدايتها جماعة أصحابي وأصحابها، رواد المقاهي والحانات والأرصفة والمسارح والحفلات الغنائية الملتزمة. كنا ننسجم معاً في الجماعة، كما تنسجم الجماعة مع نفسها. لقد كانت الجماعة أقرب إلى مجموعة حزبية. ولارا وأنا لم نضطر في البداية إلى إيجاد مواضيع لأحاديثنا التي كانت تتغذى من أحاديث الجماعة المشتركة. لم نعش أبداً لحظة من الغيرة، فأصدقاؤنا جميعهم مصاحبون. وغابت النقاشات والمشاجرات، فنحن لم ندخل في تفاصيل علاقتنا ولم نرسم لها شكلاً محدداً نتبعه.

كان حزن لارا وفرحها يشبهان الأدوار المسرحية التي تتعلمها في كلية الفنون بوصفها طالبة مسرح. أحبت ستلافنسكي، وفرويد، وراحت تتقمص أدوارها المسرحية على طريقة الأول وتحلل نفسيات الآخرين على طريقة الثاني. تكلم نفسها أمام المرآة أو تدخل في نوبات ضحك وبكاء متلازمتين لمدة طويلة. كانت تتصرف كطالبة مسرح بامتياز. أداؤها هذا أستدخلته في علاقتنا، ولكنها فجأة كانت تقرر العودة إلى الحياة الطبيعية، بعد أن تمل الحياة المسرحية.

نستيقظ صباحاً، فتبادرني «صباح الخير يا دودة القز»، على ما كانت تدللني. تسبقني إلى تحت الدوش لنأخذ حمامنا الصباحي المعتاد. تمشط شعري، وأمشط شعرها... ثم نختار شخصا من المخيلة لنسخر منه. مارسنا هذا الطقس يومياً حتى آخر يوم في علاقتنا. بعد انتهاء طقس ما بعد النوم، ندخل إلى المطبخ ونتعاون في تحضير فطورنا، نحمله إلى غرفة الجلوس على صينية كبيرة ونبدأ بالأكل كأننا لم نأكل منذ زمن بعيد. فطورنا الفرح سببه النهار الفرح الذي ننتظره على الأغلب. كانت نهاراتنا جميلة خارج النوبات المسرحية التي يصطنعها كلانا في فترات متقاربة. نهاراتنا تبدأ بشراء الكحول من المحال التجارية التي تفتح باكراً في شارع الحمراء، ثم تذهب إلى جامعتها وأنا إلى جامعتي، أو نتمشى قرب البحر، إذا كان الطقس جميلا، أو نجلس في مقهى ما إذا كان الجو ماطراً. وفي كل الأحوال كانت تنتظرنا

سهرة صاخبة في منزل أحد الأصدقاء. ما فعلناه في أول أسبوع من علاقتنا، ظللنا نفعله حتى آخر يوم فيها..

الدوش الصباحي، الفطور، شرب الكحول باكراً، التسكع، السهر مع الأصدقاء، ثم العودة إلى المنزل. الممارسة اليومية للجنس أدخلت علاقتنا في الروتين والجفاء اللذين ينخران العلاقات كلها كالسوس. علاقات الجنس وعلاقات الشعر وعلاقات الألفة والعذرية وعلاقات الجفاء، كلها يحطمها الروتين والجفاء بالطريقة نفسها، ولو أنهما يدخلانها من أبواب مختلفة.

ما كان يجري بيني وبين لارا كان معاكساً لما جرى مع لانا، وما جرى مع لانا كان معاكساً لما جرى مع فتاة الجامعة... كأن علاقات الحب تدفع بعضها بعضاً إلى حافات انهيارها، حتى ليبدو أن العلاقة الثانية هي انتقام للأولى، وأن الثالثة انتقام للثانية. لا يمكن الوصول إلى حالة واحدة في الحب، حالة مستقرة وثابتة.

كانت الفتيات اللواتي ينضجن قبلنا، نحن الشباب، متفقات على أن علاقة الحب تعني الحاجة إلى الآخر. وكن يتفقن على أن الانتظام والتتابع والمضي بها في وتيرة واحدة ستؤدي إلى أفولها. كن يمضين وقتاً ممتعاً معي، كن يحببني حقاً. وإذا كان للحب تعريف، ذلك الحب الدائم التبدل كالحرباء، فإنه يتلون بألوان العلاقات التي نقيمها ونعتادها، فيدخل فيها ويختفي ويصبح جزءاً منها.

لذلك نعتقد أنه يتلاشى، دون أن ننتبه أنه يمارس علينا خديعة، فيذوب في العلاقة كالملح في الماء.

تعرفت إلى الألمانية التي تعودت على حياتها الفردية، ولا تبحث عن علاقة ثابتة وجدية.

أظهرت هذه الفتاة تعاطفاً معي عندما سردت لها وقائع علاقاتي السابقة مع فتيات أخريات. كان جو أصدقائها الأوروبيين مختلفاً بالنسبة لي، فالرتابة فيه معروفة سلفاً.

الأوروبيون لا ينزعجون من الرتابة. فالأحاديث التي يباشرونها، لا تعدو كونها عناوين عامة وخطوط عريضة. لا يتكلمون عن الأشياء بتفاصيلها، ولا يعرف أي منهم تفصيلاً عن حياة الآخرين. يجتمعون على الطعام فقط، ويبدو طقس الطعام كاف لدوام صحبتهم. رتيبو الحركات، ولا يستعملون الإشارات حين يتكلمون، يتلون حديثهم كأنهم يقرأون في كتاب.

يلتقون بحسب مواعيد وينهون لقاءهم بسرعة كأنهم يخافون امتداد الحديث إلى حيث لا يريدون. أدخلتني تلك الألمانية إلى عالم شبيه برواية، وصرحت لها أني أريد أن أكتب رواية عن حياتي معها. معها تعودت على الرتابة في شكلها الحقيقي، ورحت أراقب أبطال روايتي الآتية، فتحولت إلى مراقب يشاهد الأشياء من خارجها. وهذا ما اكتشفته الألمانية فيما بعد، وقالت إن العيش مع مراقب كذبة، كمن يعيش مع قبيلة قرود، معتقداً أنه في مجتمع مثالي.

حملت أغراضي وعدت إلى منزلي محبطا، ولكن بفرح لأني صرت مستكشفاً ممتازاً. قلت لها مرة : «دعك من هذه الأمور وهمومها، فالأوزون سترتقه جدتي، والمساحات الخضراء ستلونها أختي الصغيرة، والشعوب الفقيرة ستصعد إلى الجنة، دعك من هذه الهموم وقبليني.»

رقصة العاشق

لعل أروع العشق هو ذاك الذي يلهبك ولا تحترق، بل يعيد رسم دوائرك صافية منخطفة إلى النور؛ هو العشق الإلهي، وهل من عشق إلا هو؟

هو هذه اللحظة التي تختزل الزمن، يتعانق فيها الماضي والمستقبل، ويعانق فيها السكون الحركة، فإذا بالمتناقضات أوهام تذوب في تجانس النغم؛ كرقصة الكاتاك، «تحاكي فيها الحركة السكون» على إيقاع النغم الواحد؛

هو نقطة تتسع للكون، فإذا المسافات أوهام، والأشكال بلا حدود، والحضور بلا أسماء؛ كرقصة الدرويش، تبدأ في النقطة، ودون أن تتركها تتصل بالمدارات فتصبح كوكباً يلاعب الأنوار؛

هو نبض القلب عندما يشق الحجب، يدفعك إلى الجنون، فتستسلم، تموت من الحب لتعود فتولد منه بعيون تبصر النور أينما حطت، وتغني أختي الشمس أخي القمر،[١] وتذوي الكلمات في صحوة المعاني.

هو صوت يناديك من الداخل، ينشد ويسبّح بفرح فتتبعه مهما كانت مسالكه، في الدين أو عبره، خارج الدين والمعتقد، هو دائماً في موقع الوسط.[٢]

ماري روز زلزل

---

(١) نشيد القديس فرنسيس الأسيزي.

(٢) Jean claude Carriere. *Dictionnaire amoureux de l'Inde*. ed. Plon, 2001.

عشاق الله الذين أذكرهم هم الذين أوجدوا طرقاً فشكل مرورهم محطات تضيء طريق السالكين. هم عشاق مجانين تلمسوا طريقهم عبر أديان مختلفة، وصلوا بالحب إلى وجه ربهم حيث الفرح والدهشة وعادوا لينشدوا الحب وليرقصوا؛ ليعلنوا انتماءهم غير المشروط للدنيا حيث يشع وجه الله من لطافة القلوب عبر كثافة الأجساد. في وهج النور كلهم واحد، وفي حركة الزمن يتميزون كما الألوان في قوس قزح.

من عشاق الله تسطع الأنوار، كما يفيض الحب من قلوب الباكتي والدراويش.

الباكتي هو طريقة في اليوغا، تعرف بأنها الأقصر إلى الله لأنها طريق الحب.(٣) لا يحتاج فيها الساعي إلا أن يصفو لشوقه، وينقي نفسه من شوائبها من خلال تسليم أمره لله. والحب في الباكتي يبدأ انفعالاً عاطفياً، ليصبح بعد التمرس توحيداً ومعرفة مباشرة؛ فالباكتي ينقي فكره إلا من ذكر الله عبر التأمل، ويكرس كل نشاطه في خدمة الله، ويسعد بصحبة من يذكر الله.(٤)

وغالباً ما تبدأ الطريق في علاقة ثنائية بين المعلم والمريد، ثنائية تسبق وحدة النفس مع ذاتها ومع الله حيث المعلم هو المرآة الصافية التي تعكس اكتمال النفس وقد أيقظتها من سباتها العميق. تبدأ عندما يدرك المريد الحالة التي يسعى إليها مجسدة في هذا المعلم العاشق، يوقظ فيه الشوق، ويشير إلى موقع القلب. وتبدأ رحلته الكبرى باتجاه القلب. فالحواس المنفتحة على الخارج بدأت تدرك حدودها، ولم يعد ينقذها إلا أن تكون في حضرته هو. تمر هذه العلاقة بأطوار الحب الإنساني، فيكون المعلم هو الأب والأم والابن والصديق والأستاذ والحبيب؛ يتلقى بثبات كل تصورات الحب عند تلميذه، يستوعبها ويساعده على التحرر منها، ويوصله إلى حيث تصفو نفسه من رغباتها وتنعتق من قيودها، وتصبح جاهزة للتوحد؛ ينسحب المعلم، ليحتل «هو» كل المكان.

فتنشق الحجب وينكشف أمامه وجه ربه، فيغمره بالفرح، ويرى النور في داخله، ويسمع موسيقى الأكوان التي فيه ويتذوق رحيق الحياة. إنها لحظة الولادة الحقة، حيث يتوحد العاشق مع ربه، ويدرك أن الفاصل بين الخارج والداخل هو فاصل وهمي، وأن الكل متحد مع الكل ؛ ينفتح على كل الكائنات، ويعشق ربه في

(٣) Osho. *Life: a song, a dance*. ed. Diamond Pocket Books. 1998.

(٤) Swami Chidananda. *Guide lines to illumination*. Ed. Divine Life Society 1984.

الآخر، فيصبح أكثر تحسساً لآلام الناس لأنه يعيشها معهم، وتصبح سعادة الآخرين وتحريرهم من قيودهم جزءاً من سعادته ومكملاً لحريته.

في هذه الحالة يكون الفرح عارماً، يفيض على العقل فيغبطه، وينطلق شعراً ورقصاً وموسيقى ....

١- الطريقة المولوية-السماع.

السماع هو حالة العشق لدرجة الفناء بالله؛ والطريقة المولوية أي طريقة جلال الدين الرومي هي طريق الرقص والإيقاع، ألم يقل الرومي «الطرق إلى الله كثيرة وأنا اخترت طريق الرقص والموسيقى؟»(٥)

تفتّح قلب الرومي منذ لقائه الأول مع شمس التبريزي. كان نقطة التحول الكبرى والأساسية في حياته جعلته يقول: «أقسم بالله أنه أضاء شموعاً فجرت النور في حياتي وكشفت كل الأسرار.» في هذه اللحظة كانت الولادة الثانية على يدي شمس الذي قال له «أنت الطالب الذي أريد تدريسه»» وقال له الرومي: «أنت شمسي التي بها أستنير.»

إن نظرة شمس إلى الرومي أعادت الدفء والحياة إلى قلبه وعرّفته إلى الحقيقة الكامنة والمنسية داخله، مما جعل الرومي يقول:

«نظرت إلى عيني شمس فرأيت نفسي كما في المرآة.»

وقال أيضاً: «إن رأيته أو رأيتني الأمر سيان، يا باحثاً أنا هو،

أنظر في نفسي فأرى شمس.»(٦)

ثم تلاشت تدريجياً صورة شمس ليحتل حب الله، مجرداً عن الصور، كل المكان.

في المرحلة المتقدمة من الطريقة المولوية، لا يعود الدرويش يرى فيما ينظر إليه إلا صورة ربه ولا يسمع إلا نداءه، فيرقص وينشد...ثم يرقص، ويردد

«إن طريقة نبينا هي طريق الحب،

إن أردت أن تحيا عليك أن تموت بالحب،

وأن تموت بالحب هو أن تبقى حياً.»

(٥) **المثنوي** - جلال الدين الرومي.

(٦) **ديوان الكبير** - جلال الدين الرومي.

إن الشعر والموسيقى والرقص هي سبل اكتمال الروح في الطريقة المولوية، تخرجها من التعدد والثنائية لتعود بها إلى عالم التوحيد، أي توحد النفس مع خالقها.

يقول الرومي: «كيف يمكن للنفس أن لا تنطلق عندما يطلق الإله نداءه الطيب كالعسل، ارتفعي !

كيف يمكن للسمكة أن لا تقفز من الأرض القاحلة إلى النهر عندما تسمع هديره، كيف يمكن للصوفي أن لا يرقص كالذرة حول الشمس الإلهية فتنقذه من هذا العالم الفاني وتعيده إلى مداراته؟».

السماع هو جواب النفس لنداء خالقها، هو طريق العودة إلى المعرفة والتحقق. السماع هو المرحلة التي تصل فيها الروح إلى آخر مداراتها، فتسمع ما كانت تعتقد أنها نسيته، تتذكره هو، تسمعه هو، تصبح هو في لحظة الذكر.

يقول الرومي «عندما يعزف الناي، تستعر رقصة الدراويش وتستدعي كل متحرك في الطبيعة لملاقاتها في رقصها.»

الأمثلة على العشاق، مجانين الله كثيرة. تبدأ القصة بنظرة من عين محبة حانية، تعيد للقلب حرارة نبضه، وللفكر حريته وانعتاقه من كثافة المادة ؛ تعبر طريقها إلى الحق والفرح، حيث يعجز الكلام عن الوصف، تتعرف الروح إلى حقيقتها ومكانتها، وتعود بعدها لا محال، لتسكب من نور العين حباً على حب.

Amour et métro

Le premier regard posé sur lui, j'ai su à quoi ressemblait l'homme que j'aimerai. Je revois toujours cette scène, comme au ralenti. A l'époque je sentais qu'il étais pris et je me suis dit : « Dommage ».

Six ans après, il réapparaît dans ma vie. Nous nous sommes mariés l'année suivante.

L'amour entre nous se métamorphosait. Aujourd'hui neuf ans sont passés, il est chrysalide.

Notre histoire ne ressemble à aucune autre, comme toute histoire d'amour. Toutes les amours prennent les mêmes chemins, comme les lignes de métro; différentes directions, différentes lignes, mais les passagers ne se ressemblent pas. Ils prennent le même métro. Ils se côtoient et se croisent.

Prologue

Aimer c'est s'embarquer dans un wagon pour un voyage coloré. Une définition parmi d'autres.

Voilà dix ans que j'ai embarqué dans le wagon de l'amour, dans l'amour de ma vie.

Le temps n'a pas d'importance à l'intérieur. Tout ce qu'il fait, c'est qu'il nous transporte, de temps en temps, d'une station à une autre.

Le trajet est parfois doux, confortable, parfois houleux.

Suha Bitar

Il m'est arrivé d'être tellement secouée par les bosses et les creux, que j'ai trébuché. J'ai même failli tomber du wagon. Il fut des moments où j'ai tellement souffert des secousses et des chutes que j'ai appelé le conducteur en pleurant pour lui demander d'arrêter, de me donner une trêve, une pause pour reprendre mon souffle.

Pourquoi commencer par les mauvais souvenirs?

Peut-être parce qu'ils nous marquent si fort, plus fort que les moments de plaisir, ou bien pour le plaisir de s'en débarrasser, de les raconter comme à la bouche d'un puits, pour les vider à jamais et se sentir soulagé, plus léger pour continuer le voyage.

Apparemment, je porte ces moments sur le coeur à la surface. C'est comme ça qu'ils sont sortis les premiers.

Quelle drôle de découverte : parler de l'amour m'emmène à parler de la souffrance.

Amour: Souffrance, bonheur.

Je ne peux aimer l'autre si je ne m'aime pas au départ. Et si je n'ai pas appris à m'aimer ?

Alors il faut tout recommencer à chaque étape, à chaque arrêt.

« Plus je me découvre et plus je t'aime. »

Je lui ai écrit ces mots un jour à la Saint Valentin.

Pourquoi le fait de se connaitre augmente-t-il l'amour.

Aimer est une graine qui pousse à l'intérieur. A l'intérieur de la cage thoracique peut-être, en tout cas quelque part a l'intérieur de soi.

Le jour où j'ai découvert mon amour pour lui, il était déjà grand, comme un arbre feuillu. Il était arrosé par deux, mon amour et le sien, main dans la main.

Mon amour je le connaissais, le sien je le percevais. Il est impossible de connaître l'amour de l'autre. Mes craintes filtrent ma perception. Mes angoisses aussi, autant que mon affection et mon calme.

Lorsque mon regard sur son amour ne l'atteignait pas, je m'agitais. Et l'eau arrosant l'arbre le ratait. Elle coulait à coté.

Mon amour, alors se sentant abandonné, ne savait plus comment arroser. Allez savoir pourquoi.

En découvrant mes craintes, mes angoisses et en cultivant ma

sérénité, j'ai ajusté le tir. J'ai vu ce que je faisais de cet arbre, ballotté à gauche et à droite. Et l'eau coulait de nouveau, désaltérante.

Voilà pourquoi les passagers des métros se croisent sans faire attention les uns aux autres; Ils sont préoccupés par leur arbre qu'ils transportent à l'intérieur.

Mais revenons à notre premier regard...

Engouffrement dans la bouche du métro.

Mes yeux se sont posés sur lui, il était de dos derrière le desk. Il se retourna et me regarda, posé, confiant. C'est surtout son charme paisible qui me prit au milieu de mon être.

Cette sensation a duré quelques secondes, mais elle revient instantanément, douce, intense et chaleureuse, dès que je ramène ce souvenir.

Je me suis dit : «Voilà ! L'homme que je voudrais aimer.»

Il avait une attitude distante ; présent, mais à distance.

Lui me raconte qu'à ce moment-là, il s'est intéressé à cette jeune fille, mais qu'il me sentait insaisissable, trop jeune, virevoltante comme un papillon. Trop fatiguant pour lui. Lui qui a l'habitude de juste se poser. En tout cas il paraissait inaccessible, et je suis retournée à ma vie.

On se croisait une fois par an, au tournant d'une rue. A chaque fois, le temps s'arrêtait. On se parlait, intéressés l'un par l'autre, attirés l'un par l'autre. Mais on retournait chacun à sa vie.

Je me rappelle encore la fois où je l'ai croisé par hasard. Je voulais que ces quelques minutes volées ne finissent pas. Et une fois partie, il me restait une note de fraîcheur et un pas léger au soleil, impression rare dans cette ville du nord.

Pourquoi lui ? Et pourquoi suis-je restée à distance de lui, même en présence de cette attraction délicieuse.

Je sens que lui ne voulait pas me laisser l'approcher. Je l'intéressais, mais il n'y avait pas de place pour moi dans sa vie. Il a fallu six années...

Apparemment il m'observait et me trouvait inaccessible. Un ami à lui travaillait dans le même établissement que moi. Nous jouions à l'appeler et lui laisser des messages ridicules sur le répondeur. Un jour je demandai : « Il est marié n'est-ce pas ? » La réponse fut : « Mais non ! » Chouette alors.

Je les ai invités tous deux à un dîner que j'ai organisé chez moi

spécialement pour le revoir. Lui repartait au pays, moi je me préparais à partir pour les Etats Unis.

Et l'attraction prenait forme. J'avançais doucement, lui encore plus. Ce soir là il me dit : « C'est dommage que tu partes ».

Il s'embarqua pour Florence, et moi pour Memphis, la même semaine. La veille de son départ il passa me voir. Il était réceptif mais malin, très malin, ne voulant toujours rien dire. Mais je sentais l'attraction réciproque et vraie. J'avais pris le ticket pour le voyage, et je savais qu'il ne dirait rien.

Alors j'ai parlé.

Notre amour est né grand, fort, mùr, serein, heureux, passionné, beau.

Je suis la femme dans l'histoire. Je suis capable de l'écrire. J'aurai pù être l'homme. Aurais-je été alors capable de le faire?

Embarquement délicieux

A son retour, j'étais encore là. Mon départ pour les Etats-Unis avait été retardé. Je demeurais deux autres mois avec lui, dans cette ville à qui nous disions au revoir.

Que me reste-t-il de cette attente du départ ?

Des scènes furtives, le premier soir chez moi, nos retrouvailles, les journées passées chez lui où j'allais en train. L'union, le bonheur avec un lendemain possible.

Je me suis surprise à découvrir un amour permis, sans interdits, au moment où je m'y attendais le moins. Moi qui me préparais à prendre l'avion pour une nouvelle destination, une autre vie, sans aucun projet ni attente d'un autre.

Me suis-je permis d'aimer parce que j'étais enfin prête à accepter l'amour ?

Mes amours d'avant étaient très différentes, toujours liées à l'impossible. Je plantais des arbustes chétifs et assoiffés qui se desséchaient.

Premier virage, changement de ligne

Il est devenu distant.

La souffrance commençait. D'abord la séparation géographique,

ensuite la correspondance, puis le doute. Enfin, les retrouvailles six mois après à Beyrouth. Le nouveau départ.

Mes bagages étaient les craintes et les doutes, qui se mélangeaient à cet amour, à cette union qui a pris forme là-bas et vacillait ici.

Pour moi aucun doute. Pour lui, beaucoup.

Il voyait nos divergences, les appréhendait. J'ai dù faire des concessions, lui aussi ; pour me dire un jour : « J'arrête ». Le jour où tu te décideras, tu sauras où me trouver.

Et c'était ainsi. Il m'a retrouvé, et nous nous sommes mariés.

Il me déclare : « Je suis intellectuellement heureux. »

Embarquement immédiat

Le soir ou il est venu chez mes parents avec les siens pour m'emmener, j'étais en blanc. J'ai porté son bouquet, et je suis sortie avec lui. A la porte, j'ai l'impression de partir sans bagages, d'avoir laissé quelque chose derrière moi. Je regarde ma mère et je lui demande : « C'est tout ? »

C'était le deuxième changement de ligne, comme un glissement d'un métro à un autre. Il y en aura d'autres.

Le décor : Petit appartement de la banlieue sud de Beyrouth, qu'il a emménagé pour lui.

Les passagers : Lui, moi, mes parents, ses parents. Moi enceinte. Et difficultés quotidiennes en plus : l'eau et l'électricité manquent. Début de carrière pour moi, déception au travail pour lui. Plus de repères pour tous les deux.

Notre amour tient. Mon corps ne tient pas. Je grossis. J'accouche d'un garçon. Je suis épouse et mère.

Changement de ligne-trois

Ensemble au-dessus du berceau à regarder notre bébé. Moment inoubliable. Joie partagée, nouveau lien par un nouvel amour, le fruit de notre amour.

Amour épanoui. A quoi ressemble-t-il?

Passion, complicité, rires. Echanges de paroles, d'idées. Partages de moments heureux, de craintes. Solidarité dans les difficultés, dans le nouveau.

Tension parfois. Colères aussi. Crises, puis détente et retrouvailles. Amour, toujours aussi fort, passionné. Mais nous étions un peu isolés. Tout tournait autour de cet arbre, dans son ombre, comme sur une île rarement visitée.

Changement de ligne-quatre

Notre deuxième enfant. Je craque. Etre mère deux fois, cela me dépasse. Plus rien d'autre ne compte pour moi, toute autre sollicitation me torture.

Je glisse dans la souffrance. Jusqu'à là, je vivais l'amour fusion, l'amour frisson. Maintenant c'est l'amour roulette russe. J'attends la balle qui va m'anéantir.

Pourquoi?

Se partager entre deux enfants, vouloir donner à chacun tout l'amour qu'il implore, vivre la jalousie du premier et sa souffrance de devoir partager sa mère avec un autre qui l'appelle aussi « maman », demande un centrage et une disponibilité affective complète. Sans parler du support indispensable. Je n'étais ni assez centrée, ni assez disponible, ni assez soutenue.

C'est alors que j'ai décidé de commencer une thérapie.

Remettre de l'ordre. Trois arbres à arroser dans un wagon instable. C'était vital pour les arroseurs et pour les arrosés.

J'ai dù ouvrir des boites, des tiroirs, regarder dans les coins derrière les portes, ouvrir des pièces qui étaient fermées à clef avec des serrures rouillées. Que de surprises, que de bouleversements, que de découvertes. Le plus étonnant, c'était de découvrir que certains passagers se trouvaient de trop dans mon wagon, souvent par ma faute ou la sienne. Alors, j'ai dù les reconduire dans leur compartiment chacun à son tour.

Nous nous sommes alors retrouvés de nouveau à deux, dans la foule des inconnus.

Seulement, dans ce grand remue-ménage, je me suis retrouvée. J'ai regardé dans mon miroir, et les choses ne se ressemblaient plus à mes yeux. J'ai retrouvé l'usage d'un pronom oublié : Moi, et une expression lointaine : Non!

Il ne me suivait plus depuis longtemps. Il était ailleurs, il était insatisfait. Je réalisais de plus en plus sa distance, ses exigences non justifiées.

Notre arbre manquait d'eau. Cette fois-ci mon amour n'était pas distrait, et je tenais bien mon arbre à l'oeil. L'autre arrosoir était presque vide. Ou il arrosait ailleurs. Je ne l'ai jamais su.

J'ai essayé longtemps de l'arroser seule, de montrer à l'autre que je ne pourrais pas le faire longtemps seule. Pas de bonnes réactions, au contraire.

Un jour, il vient me dire que c'est moi qui manque à l'arrosage.

Quel gâchis! Mon arbre se meurt. Il refuse même de boire. Alors j'arrête de l'arroser.

Il va falloir prendre une décision.

Changement d'itinéraire

J'ai pris la décision de descendre au prochain arrêt. D'arrêter le voyage. Lui aussi, il doit descendre ; ce métro on le prend uniquement à deux. Il le veut aussi, il veut descendre.

Je suis sur le quai, je regarde les portes qui se préparent à fermer. Quelle désolation. L'hiver est là, mon arbre a perdu ses feuilles.

Je dis : « Notre amour est encore en vie, comment l'abandonner, le jeter comme on se débarrasse d'un mouchoir en le lançant par la fenêtre du véhicule ? »

Ce fut un moment marqué pour toujours dans ma mémoire. On ne traite pas un arbre comme ça.

Après un jour et demi de silence, de larmes et de tristesse, il me parla, de nouveau calme et posé : « Qu'est ce que tu penses faire ? »

- « Donnons encore une chance à notre amour. »

Il est d'accord.

Je suis remonté dans le métro en même temps que lui.

Mon arbre a survécu. Il revit.

Itinéraire interactif

J'ai oublié de dire qu'à mon embarquement je ne connaissais ni le trajet ni la des-tination. Je découvre seulement que tout est possible. Il suffit de cliquer sur la bonne touche pour changer d'itinéraire. Ne sommes-nous pas au temps du *Cyber love* ?